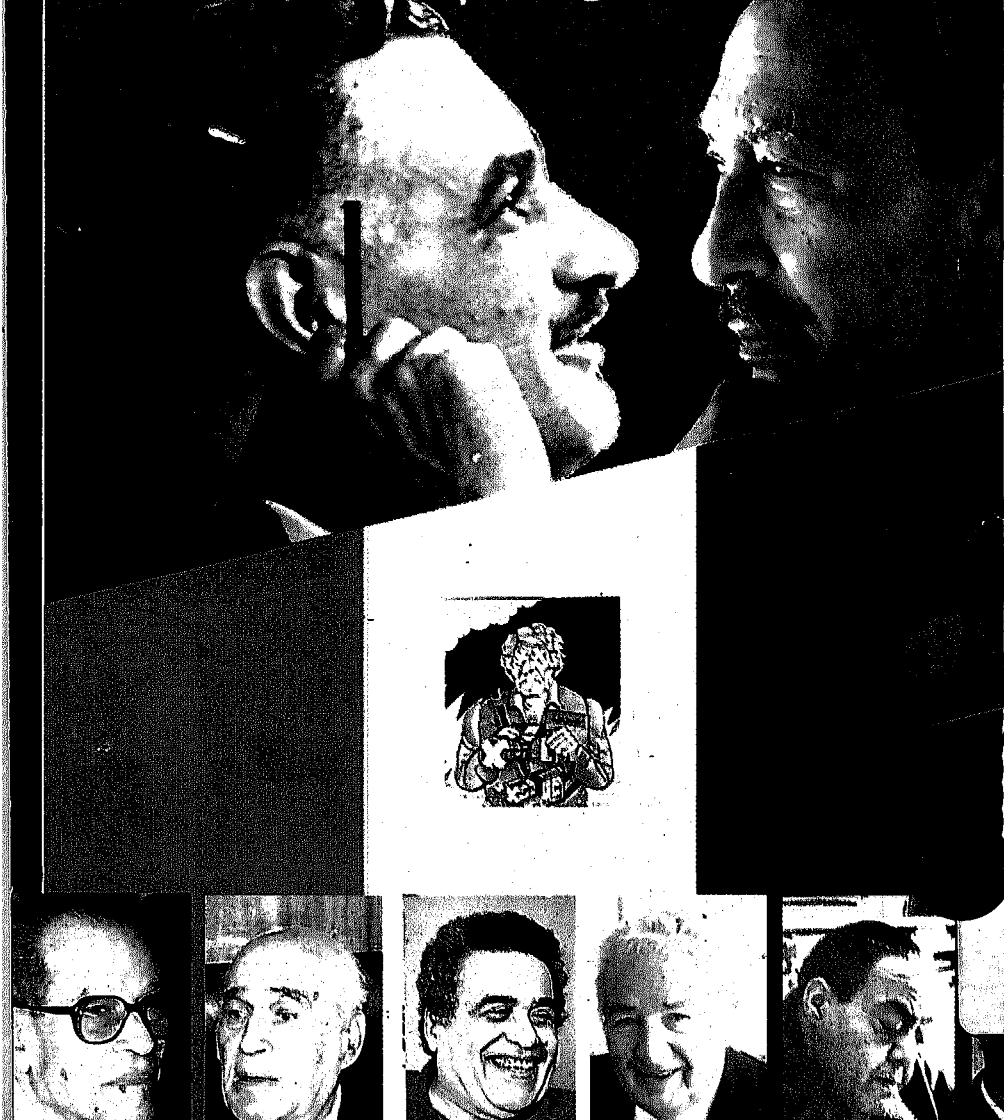
كتاب اليوم

معركة بين الدولة والمثقفين

فتحي غانم



كتاب اليوم

عدد سبتمبر

معركة بين الدولة والمثقفين

بقلم :

فتحى غانم

أسعار كتاب اليوم فى الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	٢٥	درهم
لبنان	٢٥٠٠	ليرة
الأردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٣٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٧٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	٣٥	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٢٥ دولارا

أمريكيا أو ما يعادله

أوربا وأمريكا ٣٠ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٠ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

● فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

كتاب اليوم

يصدر عن دار أخبار اليوم أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة :

إبراهيم سعده

رئيس التحرير :

نبيل أباظة

عدد سبتمبر ١٩٩٥

التصميم الداخلى : عاطف مصطفى

الغلاف : خالد فرحات

١

كيف سيطرت المخابرات والمباحث على عقول المصريين ؟



«« هل فقدنا عقولنا ؟!
هـل انشـغلنـا بمصـادرة الأمـوال والودائـع فى البنـوك وتأمـيم المصـانـع والشـركات ولم ننتبه إلى مصـادرة العقول وتأميم الأفـكار ؟!»»

إن السيدة السـويديـة، مارينـا ستاك، شغلت نفسهـا على مدى سنوات لـلإجابـة عن هذه الأسئلة، وقـد قابلتهـا فى مصر أكثر من مرة، وهى تسأل وتحاور وتنـاقش، كما قابلهـا عشرات من الكتاب المصريين من بينهم ـــ طبعـا ـــ نجيـب محفـوظ، وإدوار الخراط، وصنع الله إبراهيم، وإبراهيم عبدالمجيـد، ويوسف إدريس، ولويس عـوض، وعلى شلش، وجمال الغيطانى، ويـوسف القعيد، ومحمـود السعـدنى، وعبـدالحكيم قـاسم وغيرهم وغيرهم من كتـاب وأدبـاء معروفين ومشـهـورين، ثم انتهت السيدة مـارينا من تأليـف كتاب عنوانه « حدود حريـة الخطاب الأدبى فى مصر فى عهدى عبدالناصر والسـادات» وقد طبعت جـامعـة ستوكهـولم الكتـاب وتقدمت بـه المؤلفة للحصـول على شهادة الـدكتوراه ، وكـان الدكتـور صبرى حافظ الـذى تولى المنـاقشة لهذه الـدراسة الشـاملة لما نستطيع أن نصفه بحق أزمة التعبير وحرية الفكر المصرى منذ قيام الثورة عام ١٩٥٢. والكتـاب يشمل عـدة فصـول منهـا فصـل عن الحكم العسكـرى فى مواجهـة حريـة الخطاب منـذ عام ١٩٥٢ حتى عـام ١٩٨١. ومصرع الـرئيس السادات. وفصل هـام عن حركـة النشر تحت رقابة الـدولة، وفصل عن الكتاب الذيـن اعتقلوا أو حبسوا أو

سجنوا من قبل يوليو ١٩٥٢ وحتى أكتوبر ١٩٨١.

وأذكر بهذه المناسبة ان السيدة مارينا ستاك كانت شديدة الحرص على مقابلة كل واحد من هؤلاء الكتاب مادام على قيد الحياة، وكانت تستعين بكمبيوتر يسجل كل الأسماء، وكانت حريصة على لقاء المرحوم صلاح حافظ، ولجأت إلىّ لأساعدها على مقابلته. وكان صلاح فى السويد لعلاج السرطان، فلما سافرت إليه من القاهرة إلى السويد، كان قد غادر السويد إلى القاهرة، فعادت لتلتقى به ولتطابق معلوماته بمعلومات حصلت عليها من الآخرين الذين زاملوه فى السجن أو المعتقل، وكان اهتمامها كبيرا بروايتين كتبتهما، الأولى « تلك الأيام » عن الإرهاب السياسى، وأحد أبطالها أستاذ جامعى من كبار المعارضين كلفته الرئاسة بالاشتراك فى كتابة الميثاق الوطنى، ولكنه كان مشغولا بخيانة زوجته، وكان يدرس الإرهاب السياسى من خلال مناقشات مع إرهابى سابق، لكنه متهم بإثارة الإرهابى ليقتل زوجته.

أما الرواية الثانية، فهى « حكاية تو » عن تعذيب المعتقلين السياسيين حتى الموت، وكانت تسألنى عن أسباب نشر رواية «تلك الأيام » فى طبعة أولى، وقد حذف نصفها، ثم أعيد طبعها كاملة فى محاولة للتعرف على وسائل محاصرة الكاتب بطرق غير مباشرة، مثل اختصار الكتاب قبل نشره، أو تأجيل نشره كما حدث بالنسبة لرواية « حكاية تو » التى ظلت ثلاثة عشر عاما منذ ١٩٧٤ عندما نشرتها فى حلقات بروزاليوسف حتى ١٩٨٧ عندما اتصل بى الصديق مكرم محمد أحمد، والصديق مصطفى نبيل لنشرها فى روايات الهلال، وكان مكرم قد تعرض لمحاولة اغتيال وفكر فى أنه قد آن الأوان لتحرير القيود على النشر لمواجهة قوى الظلام .

وهناك فصل فى الكتاب عن هرب الكتاب إلى بيروت ودمشق

وبغداد فى عهد عبدالناصر من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٠، وفى عهد السادات من ١٩٧١ إلى ١٩٨٠، وفى هـذا الفصل قـائمـة بـأسماء الكتـاب المصريين الذين نشروا أعمالهم خارج مصر فى عهد السادات .

تناولـت مناقشـات السيدة مارينـا مع الكتـاب المصريين أسئلة بالغة الأهميـة، ما الذى يمكن نشره ومتى؟ ومن الـذى فى يده قرار النشر، ومن الـذى يقرر مـاهو كفـر وإلحاد. وماهـو دور الرقـابة الرسميـة والرقـابة غير الـرسمية والضغوط التـى تقع على الكتاب والمؤلفين وأنواع العقبات التى يتعـرضـون لها وتحد من حريتهم فى التعبير، وتقول السيدة « مـارينا » أنها عندما كـانت تلقى مثل هذه الأسئلة شـارحة أن هـدفها البحث عن حـرية التعبير، كـان الكتاب يواجهـونها بالضـحكـات قائلين: إن البحث ليس عن حـرية التعبير، بل عن القيـود على حـريـة التعبير، فهذا هـو حـالهم، لكن دراسـة العقبات والقيود التى واجههـا الكتاب فى نشر أعمالهم خلال ثلاثين عاما من حكم عبدالنـاصر والسادات، هى بالضرورة دراسة لحرية التعبير، ولابد أن نعترف بأن هناك قـدرا من الحرية للكتاب حتى فى أشد النظم استبدادا، وهى حريـة مكفولة على الأقل للبعض أو القلة ومع ذلك لم يفقد كتـاب مصر ـ فى رأى السيـدة مارينا ـــ حريتهم تماما، لكنهم واجهـوا خطة شاملة للسيطـرة التامة على ما يكتبـونه أو ينشرونه، وامتدت السيطرة إلى كل مطبعـة فى مصر. سواء كانت قطاعـا عاما أو خـاصا. ولم يشهد الكتـاب فترة بلا رقابـة رسمية طوال الثلاثين عاما سوى سبعة أشهر. على نحو ما سوف نتبينه .

وعند قراءتى لكتاب السيدة مارينا ، تـذكرت أحداثا بالذات كنت شاهـدا عليها لذلك سمحت لنفسـى أن أعيـد صياغة ما تـذكره بأن أضيف إليه تجربتى الخاصة ، فما كـان بالنسبة لها قوائم بأسماء وأرقام إحصـائية ، كـان بالنسبـة لى مشاهـد إنسانيـة ، فيها قلق

وحيرة وغضب ونفاق وبكاء بالدموع وهرب من البلاد ولقاءات فى الهجرة ، وأسئلة فى شوارع لندن أو باريس أو الكويت عن الأحوال فى مصر ولماذا لا يكتب فلان، ولماذا اعتقل فلان.

واستمرت هذه الحياة المفعمة بالتوترات والأسئلة الفضولية أو الشامتة أو المشفقة طوال مرحلة ثورة تولت السلطة فيها القوات المسلحة، ألغت الأحزاب القائمة والبرلمان وفرضت على الصحافة سيطرة ورقابة الدولة لتضمن السلطة قوة مطلقة تبدأ من قمة النظام الحاكم لتتغلغل فى جميع مستويات اتخاذ القرار حتى وصل الأمر إلى اختيار رؤساء تحرير الصحف وأعضاء مجالس إدارات المؤسسات الصحفية من أهل الثقة، بالاضافة إلى رقابة رسمية موزعة بين وزارتى الاعلام والثقافة، ثم هناك رقابة عسكرية، ووظائف رقابية تقوم بها أجهزة أخرى كالمباحث وأمن الدولة.

ولقد أحاطت هذه القوى جميعها بالكتاب وحاصرتهم من كل جانب، حتى انتشرت النكتة التى أطلقها الشاعر مأمون الشناوى، ورددها شقيقه كامل الشناوى أن «مامخابرات إلا بنى آدم» وأصبح الصحفيون فى مؤسساتهم والكتاب فى المقاهى والمنتديات يتعاملون بافتراض أن الأصل فى الصحفى أو الكاتب أنه عميل للمباحث أو المخابرات وأن وجوده فى مهنته يرتبط بكتابة التقارير عن زملائه.

وكانت إلى جوار كل هذه الضغوط دوائر دينية تشن حملات بين وقت وآخر، مهاجمة أعمال كبار كتاب مثل نجيب محفوظ أو عبدالرحمن الشرقاوى، أو كتاب صغار لم يسمع عنهم أحد. وكان النظام يشجع هذه الحملات أحيانا ويستغلها لضرب كاتب كحالة عبدالرحمن الشرقاوى الذى تعرض لهجوم مزدوج باعتراضات دينية على روايتى الحسين ثائرا، والحسين شهيدا، واعتراضات

سياسية فى عهد عبدالناصر تستريب فى ولائه للثورة. أو حالة نجيب محفوظ فى أولاد حارتنا، فلا نستطيع أن نعرف على وجه التحديد نسبة الاعتراض باسم الدين ضد الرواية والكاتب، ونسبة الاعتراض باسم المنافسة الصحفية ضد الأهرام ورئيس تحريرها محمد حسنين هيكل الذى نشر الرواية، وهل كانت صرخات الاحتجاج موجهة من قراء للراوية، أم من أعداء لهيكل من داخل السلطة ومن الشلل الملتفة حول عبدالناصر. تريد أن تسقط هيكل أو على الأقل تحرجه وهى لم تقرأ حرفا من رواية أولاد حارتنا.

وعلى أية حال تقلبت حرية التعبير، حسب صراعات داخلية على السلطة، وبسبب اتجاهات سياسية خارجية، فى اتجاه أمريكا أو روسيا أو عدم الانحياز أو القومية العربية أو الأمة الإسلامية، ولاشك أن أسلوب كل من الرئيسين عبدالناصر والسادات كان مختلفا نحو الكتاب والصحفيين، وكانت هناك سنوات استرخاء وسنوات توتر، لكن عند الدراسة المتعمقة، سوف نجد أن كلا العهدين يشتركان فى موقف واحد، وفى خطة واحدة للسيطرة على الكتاب والصحفيين والحركة الأدبية، أى السيطرة على عقول المصريين، وغير صحيح أن هناك خصومة بين العهدين فى مجال الرقابة، وإذا كانت هناك خلافات سياسية فى مواقفهما إلا أنها لاتخفى التشابه بينهما فى مجال السيطرة على حرية التعبير، ولذلك نرى أن البداية الصحيحة للتحولات طرأت على حرية التعبير والفكر فى مصر، فى بداية الثورة التى قادتها القوات المسلحة.

ولقد ورث السادات القيود التى فرضها عهد عبدالناصر على حرية التعبير والسيطرة على الصحافة والنشر، وهى القيود التى كانت مقدمة للانهيار الثقافى بعد حرب ١٩٦٧، ثم عهد السادات. وهذا يفسر لنا ماقد يبدو غريبا ومتناقضا، فقد شهدت مصر

ازدهارا أدبيا بلغ ذروته أيام الرقابة والاضطهاد والاعتقالات في عهد عبدالناصر. ثم جاء السادات وألغى الرقابة الرسمية، ومع ذلك ظهرت عوامل التفكك والخمود الأدبى والثقافى.. وكان ماأعلنه السادات عن إلغاء الرقابة يختلف تماما مع ماجرى فى التطبيق.

والآن نشرع فى دراسة موضوعية تقوم على الوقائع والاحصائيات لمعرفة إجراءات القهر والرقابة، ولقد تناولت السيدة مارينا ستاك الكتاب الذيت كتبوا رواية واحدة على الأقل، أو مجموعة قصص قصيرة ونشرت بين عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٧٤، أو بعد ذلك بفترة قصيرة، وتابعت أحوال هؤلاء الكتاب واحدا واحدا، من تعرض للاعتقال. ومن داخل السجن، ومتى ولماذا؟ وماذا كانت عليه احتمالات النشر بعد الإفراج عنه. ونتيجة وضع أسمائهم فى قائمة سوداء، أو إيقافهم عن العمل لفترات طويلة مما دفع بعضهم إلى اختيار النفى أو الهجرة، أو البحث عن ناشرين خارج مصر، وهى الظاهرة التى بدأت فى الانتشار منذ بداية السبعينيات.

وتلاحظ السيدة مارينا ستاك. إن كلا من عهدى عبدالناصر والسادات كان محل اهتمام كبير شرقا وغربا من كتاب ومؤرخين تناولوا سياساتهما الخارجية، والصراع العربى الإسرائيلى، ودور مصر فى العالم العربى والعالم الثالث، وعلاقة عبدالناصر أو السادات بأمريكا أو الاتحاد السوفيتى. وهناك كتب كثيرة تناولت شخصيتيهما كزعيمين، وماهى آراؤهما السياسية وأسلوبهما فى ممارسة الحكم، لكن لايوجد أدب أو كتب تتناول موقفهما من حرية التعبير والفكر، قد توجد إشارات عابرة أو هامشية، وتسجيل لموجات الاعتقال، لكن بلا دراسة لتأثير هذه القيود على الحياة الثقافية والاجتماعية، وربما كان كتاب أنور عبد الملك عن

السنوات العشر الأولى لعهد عبدالناصر «مصر والمجتمع العسكرى» هو أقرب الكتب لتناول الحياة الثقافية المصرية والمناخ الثقافى فى ظل القيود وقهر الصوت المعارض، كما أن حالات القهر فى عهد السادات لم يتعرض لها الكتاب الأوروبيون.

وعندما أعود بذكراتى إلى تلك الأيام أرى أن ماكتبته عن الصحافة والمثقفين فى« الرجل الذى فقد ظله» و«زينب والعرش»، قطرة فى محيط، ومازالت مشاهد محفورة فى ذاكرتى أضيق بها حتى اليوم لأنها تذكرنى بحالة الانهيار ومناخ الضياع الثقافى.

اذكر الزميل الصحفى الذى أصبح رئيسا لمجلس إدارة وكان سببا فى دخولى مبنى المخابرات العامة لأول مرة فى حياتى بناء على استدعاء لى، ليفاجئنى بأنه كتب تقريرا ضد إحسان عبدالقدوس يحتوى على أكثر من عشرين اتهاما ويستشهد بى، وواجهته أمام المسئول الذى طلب سؤالى بأن تقريره كاذب ليس فيه اتهام واحد صحيح. وكان قد عرف بخلاف وقع بينى وبين إحسان فى العمل، فتصور أنى سأقف إلى جانبه ضد إحسان، وجاء يوسف السباعى يقول لى وهو فى حالة استياء من موقف صاحب التقرير: إن مسئول المخابرات إتصل به، وامتدح موقفى، لكننى لاامتدح موقف أجهزة الدولة التى عرفت أخلاق هذا الصحفى ثم وضعته فى منصب رئيس تحرير ورئيس مجلس إدارة، ولا أنسى يوم صدر القرار بفصل عبدالستار الطويلة، ومفيد فوزى من صباح الخير، وكنت رئيسا لتحريرها، وحالة الوجوم والفزع التى سادت بين المحررين، والخوف فى العيون والأيدى ترتعش وهى تمسك بالقلم، والهواجس والريب، ومفيد فوزى يستقبلنى فى بيته شاحب الوجه لايعرف سببا لفصله، ولا يرى أملا فى النجاة إلا فى صديقه عبدالحليم حافظ وعلاقته بالمشير.

وهكذا كـانت تصاغ القيم والأولويات لشبـاب الصحفيين، اذكر عبدالله الطـوخي مسافرا معنا فى وفـد إلى تونس خروجـه من مطار القاهـرة يحتاج إلى مراجعـات، وعودتـه إلى القاهرة تحتـاج إلى نداء على اسمــه بالميكـروفـون وسط قاعـة تسلم الحقـائب لتستجوبـه أجهـزة الأمن، دخل اسمــه القائمــة السـوداء ولم يخرج منها منـذ قبض عليه فى أغسطس ١٩٥٣، وحكم عليـه بالسجن عـامين بتهمة الشيـوعية، أقسم أنـه طلق السيـاسة منـذ خـرج من السجن لكن مخالب السيطرة مـازالت تمسك به لأنه كاتب فى رأســه أفكار، لكن أية أفكار تنطلق فى هذا المناخ.

إن مارواه محمـود السعدنى ساخـراً شاهدته بـاكيا فزعـا يوم جاء من الكويت إلى بغداد مطـرودا محروما من سيارته.. ينتقل مع زوجته وعيـاله مـن بلاد الله إلى بلاد الله يـروى سـاخـرا باكيـا عن أجهـزة تطارده لانتمائه إلى حزب «زمش» أو «زى ماأنت شايف».

إن مئات المشـاهد التـى نواجهها فى الإنســان فى ملامـح وجهه وبريق عينيه، وبحة صوته، ولهجتــه وحركة يديه، تفضح لنا كيف كان القهـر يلتهم كل قدرة على التفكير، جمال كامل الـرسام الكبير خارجا من المعتقل لايعرف حتى مات سبب اعتقاله.

هذه حـالات بلغت من الشذوذ مـايفوق حـالات التعذيب المادى الجســدى الـذى ينتهى بمـوت أو تشـويـه جســد كـاتب يـرفض الاستسلام فيحافظ بموته وباستشهاده على كرامة أفكاره.

كـانت السلطة قـد دخلت معـركة ضـد حياة المثقفين بتيـاراتها المختلفة إسـلامية يســارية ليبراليـة حزبيـة، وكان العـدو الفكرى أمامها يشمل حسب الـوضـع القائم فى سبتمبر ١٩٥١ أى قبل قيام الثـورة بعشرة أشهر، نشــاطـا صحفيـا غير عادى، إذا كـان قـراء القاهرة يستقبلون كل يـوم واحداً وعشرين صحيفة، ويختارون كل

أسبوع بين مائة وواحد وعشرين مجلة أسبوعية، ولهم الحق فى قراءة مائة واثنين وسبعين مجلة شهرية أو نصف شهرية، أو تصدر حسب ظروف خاصة، ولقد بدأت المعركة بعد شهر عسل قصير انقضى بعد ثلاثة أسابيع منذ قيام الثورة وكانت بداية حركة قمع لإضراب عمال كفر الدوار حيث سقط ٦ قتلى و٨ جرحى. وصدر الحكم بالإعدام على اثنين من قادة الإضراب، هما مصطفى خميس، ومحمد حسن البكرى بعد محاكمة عسكرية، وتم تنفيذ الحكم شنقا فى اليوم التالى لصدور الحكم فى نفس الموقع الذى تظاهر فيه العمال.

وكان لهذا الحكم تأثيره المباشر فى اختفاء جانب من الحركة الثقافية تحت الأرض فورا وهى الحركة الماركسية، وبعد قليل كانت بقية الأحزاب السياسية تواجه نفس المصير بعد ضربات غلب عليها أول الأمر التردد من جانب مجلس قيادة الثورة، لأن الضربات كانت توجه إلى من ساهموا فى قيامها وأيدوها.. سواء كانوا من الشيوعيين وحركة «حدتو» أو الليبراليين مثل إحسان عبدالقدوس الذى تعرض للحبس فى السجن الحربى عندما ظن أن علاقته بقيادة الثورة تسمح له بالكتابة عنهم بحرية ويقول إنهم «جمعية سرية تحكم مصر».

لقد فقد الضباط ثقتهم فى المثقفين وسقطت شعبيتهم إلى الحضيض، ولم يتصور أحد أنه بعد عامين سوف يظهر جمال عبدالناصر كبطل حقيقى فى مصر والعالم العربى.

٢

تفريغ العقول وتطهير الأحزاب ثم إلغاء العقول والأحزاب



وو نعم أصبح جمال عبد الناصر بطلا حقيقيا وزعيما لمصر وللعالم العربى بلا منازع ولكنه وهو يتقدم صاعدا درجات سلم الزعامة كان قد أفرغ عقول المصريين من أفكارهم السابقة التى اعتادوا عليها وذلك لتأمين الثورة وتأمين النظام. ولم يضع فى اعتباره ان الطمأنينة والأمان الذى ثمنه عقول فارغة لابد أن ينتهى إلى ردود فعل فى حجم الكارثة. ؤؤ

بعد عامين من الثورة كنا جميعا نهلل لعبدالناصر الزعيم الذى فتح لنا أبواب التحرر من دوائر الاستعمار بمشاركته فى مؤتمر باندونج، والذى قرر أن يشترى السلاح من تشيكوسلوفاكيا متحديا احتكار السلاح الأوروبى الغربى والأمريكى. والذى فتح أسواقا للقطن المصرى فى الصين والاتحاد السوفيتى فلم تعد حقول القطن فى مصر صنيعة تابعة لمصانع النسيج فى انجلترا. ثم هو الذى وجه ضربة المعلم فى يوليو ٥٦ بقرار تأميم قناة السويس.

وفى تلك اللحظة ثبتت دعائم زعامة عبدالناصر فى تاريخ مصر والعالم العربى والعالم الثالث، وهى زعامة لاشك فيها، ولقد التف حولها الشعب وقد نسى فى لحظات السنوات التى خاضتها الثورة منذ قيامها فى يوليو ١٩٥٢، والضربات التى وجهتها للأحزاب للمثقفين وللصحافة ولكل أفكار معارضة. فإذا كانت تلك الضربات انتهت إلى تأميم قناة السويس وتحرر الجيش من

ضغوط السلاح الانجليزى وحرية الفلاح المصرى فى تسويق محصوله الأول وهو القطن. والثمن مقبول ومدفوع. وعلينا أن نبدأ عهدا جديدا.

لكنه بكل المقاييس كان ثمنا باهظا. ولقد دفع الشعب المصرى القسط الأول من الثمن عندما لم تنسحب القوات المسلحة إلى ثكناتها وقررت أن تتولى بنفسها عمليات البناء.. وقررت أن تتولى بنفسها مهمة التفكير. وكانت النكتة المشهورة التى أطلقتها أم كلثوم انها تنصح أى أب حريص على مستقبل ابنه أن يسعى لإدخاله الكلية الحربية ليتخرج الطالب ويعمل فى أى عمل يشاء طبيبا جراحا أو مهندسا أو مدير بنك أو كاتبا ورئيس تحرير أو قاضيا يصدر الأحكام على الناس فى مجلس القضاء.

أما مجلة روزاليوسف فكانت لها طريقتها فى التهكم على تولى السلطة العسكرية كل مهام البناء. فعندما كان البعض يقولون إن هناك داخل السلطة مثقفين من غير ضباط الجيش مثل الشيخ أحمد حسن الباقورى. كانت روزاليوسف تقول إن اسمه أ.ح. الباقورى. أى أركان حرب الباقورى، ولهذا شارك معهم فى الوزارة. وكانت الرقابة تفزع من مثل هذه التعليقات وكانت هناك ضجة عندما نشرنا مقالا بقلم أ.ح. الباقورى.

ومن النكت التى مازلت أذكرها ان حفلا أقيم لانتخاب ملكة جمال فكان الفائز ضابطا، غير ان المثقفين كانوا يتراجعون خائفين أو مترددين أمام بطش يتصاعد تدريجيا . ومنذ البداية فى ٨ سبتمبر ٥٢ أصدر مجلس قيادة الثورة قانون إعادة تنظيم الأحزاب، وقرر أن يجعل من نفسه حكما يراقب اللعبة ويصدر أحكامه، ولا يتدخل ــ هكذا فى البداية ـ فى الانتخابات ولايشترك فيها. وقد تحدد شهر فبراير ٥٣ موعدا لإجراء الانتخابات أى بعد

ستة أشهر من صدور قرار تطهير الأحزاب. ولقد امتثلت أغلب الأحزاب للشروط التى وضعها مجلس قيادة الثورة. أن تتولى تطهير صفوفها من الأعضاء الذين اعتقلتهم الثورة أن تعلن برامجها وأسماء أعضاء الأمانات العامة وامتثل أكبر حزب وهو الوفد للشروط كما امتثل لها أصغر حزب ولعله حزب بنت النيل ورئيسته الدكتورة درية شفيق.وظل حزب الاخوان المسلمين فى مركز الصدارة وفوق التطهير. لكن لم يمض شهر واحد حتى فرضت الرقابة يوم ٢١ أكتوبر ٥٢.

وجاء ١٠ ديسمبر ليواجه المصريون إلغاء الدستور، وبدأ العام الجديد بقرار حل الأحزاب ماعدا الإخوان المسلمين فى ١٧ يناير ١٩٥٣. أما الأحزاب الشيوعية فكانت قد هربت تحت الأرض فى العمل السرى منذ صدور أحكام الإعدام أول الثورة فى إضراب عمال كفر الدوار.

ومع قرار حل الأحزاب هوجمت مقارها. وصودرت ودائعها فى المصارف واستولت السلطة على المطابع واختفت الصحافة الحزبية، واختفى الرأى المعارض واعتقل فى نفس الوقت مائة وأربعة وأربعون عضوا من أعضاء البرلمان السابق على الثورة.

وقررت الثورة أن تفتح لها مؤسستها الصحفية. فاستولت على مطابع شركة الإعلانات الشرقية وشركة الإعلانات المصرية والتى كان يملكها فى الأربعينيات المليونير الانجليزى «فينى» صاحب الشارع المشهور باسمه فى الدقى. وتولى أنور السادات رئاسة مجلس إدارة دار التحرير التى تضم إلى جانب المطابع المصادرة دار تحرير تضم جريدة الجمهورية وصاحب الترخيص بها هو جمال عبد الناصر شخصيا.. وكان المقصود بها أن تملأ الفراغ الفكرى السياسى نتيجة مصادرة صحف الأحزاب بعد إلغائها.

وتتساءل السيدة «مارينا ستاك» صاحبة الدراسة عن الرقابة على الرأى والنشر فى عهدى عبدالناصر والسادات وهى الدراسة التى دفعتنى إلى كتابة هذه المقالات.. تتساءل كيف تستطيع الثورة أن تحقق مبادئها النبيلةبتصفية الأحزاب. وإغلاق الصحف وإقامة محاكم ثورة ومحاكم خاصة باسم محاربة الفساد.

ولقد حاول كتاب وصحفيون مواجهة ضرب الصحافة وتقييد حرية التعبير السياسى بأن دعوا إلى تشكيل جبهة وطنية فكانت نتيجة هذه الدعوة اعتقال الصحفيين من اليمين واليسار واستمرت حملات الاعتقال حتى وصلت إلى المنطقة التى كانت محرمة وهى الإخوان المسلمين فجاء يناير ١٩٥٤ وقوات الشرطة الحربية ورجال الأمن يعتقلون أربعمائة وخمسين من الإخوان. وكان لابد أن يؤدى هذا إلى تيار مضاد للاعتقال وكبت الحريات تجمع واحتشد فى صفوفه وفديون وشيوعيون وبعض رجال القوات المسلحة، والتفوا حول محمد نجيب رئيس الدولة وبدا ان هذه الانتفاضة سوف تنجح فى شهر مارس ١٩٥٤. فقد ألغيت الرقابة على الصحف يوم ٥ مارس واشتعلت الصحف بمقالات الرأى والرأى الآخر. وظهر أساتذة جامعيون من القاهرة والاسكندرية يدافعون عن حرية الرأى والديمقراطية.

واشتدت حملة الحرية فصدر قرار مجلس قيادة الثورة يوم ٢٥ مارس بالإفراج عن جميع المسجونين والمعتقلين السياسيين، والإعلان عن انتخابات عامة فى يونيو القادم مع رفع الحظر السابق على الأحزاب خلال شهر واحد.

أفراح الديمقراطية كانت ترتبط بأمل فى بدء عهد جديد، بعد أن تمت عمليات الهدم وإزالة النظام الملكى القديم، فلم تعد هناك حاجة إلى استخدام السلاح والتعامل بالقوة. أو كما كان يقول ابن

خلدون: إن قيام الدولة يبدأ بالسيف، فإذا قامت الدولة انطلق البناء بالقلم وتراجع السيف، أى تنطلق الأفكار وتزدهر الثقافة. ولا يعود السيف إلى الظهور إلا فى مرحلة الاضمحلال ونهاية الدولة سواء بإنهيار وتفكك داخلى أو غزو خارجى. فبداية الدولة ونهايتها بالسيف، وبين البداية والنهاية يكون التعمير والبناء بالقلم أى بالفكر والثقافة. لكن القلم انكسر فجأة وسط أفراح مارس ١٩٥٤.

وبينما كان المثقفون فى مقاهى القاهرةوالاسكندرية يتبادلون التهانى بعد أن بدأ عام ١٩٥٤ بداية سيئة بإغلاق ثمانى مجلات بينها «الكتاب» لسان حركة السلام و«الملايين» لسان حال الحركة الديمقراطية الوطنية حدتو و«المعارضة» لصاحبها فتحى الرملى.. وإنه لدليل على شذوذ أحوال الثقافة فى مصر أن تقدم اسم فتحى الرملى لقراء اليوم بأنه والد «لينين الرملى» عبقرى المسرح وبغير هذا التقديم لن يعرفه أحد فى جيلنا الحاضر.

وكان أيضا إغلاق مجلتى «الثقافة» و«الرسالة» وفى مقابل ذلك كان العرض المطروح لسد الفراغ الثقافى هو إقامة هيئة التحرير إلى جانب دار التحرير للطباعة والنشر.

لقد كان كل شىء يبشر بأن العهد الجديد قد بدأ، والبداية بالغة السوء فى أول شهرين من عام ١٩٥٤ هى نهاية مرحلة انتهت ولم تعد هناك حاجة إلى استمرارها. لكن حدث فجأة أن عادت الرقابة مع نهاية الشهر يوم ٢٨ مارس. وصدر قرار بتأجيل الانتخابات.

وسيطرت مظاهرات عمال حلوان أو مظاهرات «صاو صاو» على وزن «ماو ماو» القبيلة الافريقية التى اشتهرت بأكل لحوم البشر.

وهوجم أساتذة الجامعات وضربوا طه حسين والدكتور

السنهورى رئيس مجلس الدولة. ضربات لها دلالتها فى اكتساح مراكز التفكير.. وبعد أيام قرر مجلس قيادة الثورة يوم ٥ ابريل تطهير الصحافة والجامعة وبعد عشرة أيام تقرر حل نقابة الصحفيين يوم ١٦ ابريل، ثم كانت تلك المذبحة التى تعرض لها كبار الصحفيين. وكنت أجلس فى مكتب كامل الشناوى بجريدة أخبار اليوم وكان يشرف على الأخبار السياسية والمحلية وأذكر بين الحاضرين صديقنا الحميم سعيد سنبل، عندما صدر بيان مجلس قيادة الثورة فيه اسم كامل الشناوى وإحسان عبدالقدوس وآخرون يتهمهم بالحصول على رشاوى أو مصاريف سرية من حكومات عهد الملكية البائدة! ودق جرس التليفون وكان مصطفى أمين يطلب من كامل أن يصعد إلى مكتبه، وصعدنا معه وهو يترنح دامع العينين لا يفهم ما الذى يحدث وماذا يريدون منه وما هدفهم من التشهير وهل يستطيع أن يرد؟

أما السيدة روزاليوسف فقد قابلتها فى بيت زوج ابنتها فكانت تهاجم وتشتم وقررت أن تنشر خسائرها من المصادرات التى واجهتها من الحكومات التى عارضتها وكتبت ان كل ماحصلت عليه كان تعويضات طالبت بها على ماتحملته نتيجة مصادرة مجلتها وتقييد حريتها فى إعلان رأيها وما حصلت عليه أقل بكثير من الخسارة المادية أو المعنوية التى تعرضت لها وكانت اتهامات المصاريف السرية تتسع لتشمل ثلاثة وعشرين صحفيا وكاتبا وأربع عشرة مجلة وصحيفة على رأسها طبعا مجلة روزاليوسف المعارضة المشاكسة.

وانشغل المثقفون بضربات متلاحقة.. حل مجلس إدارة نقابة المحامين، أحكام بالسجن عشر سنوات وخمسة عشر عاما على محمود أبوالفتح وأحمد أبوالفتح صاحبى وكاتبى المصرى وسحب

رخصة إصدار «المصرى»، وقد صدر آخر عدد من الصحيفة يوم ٤ مايو ٥٤.

وبعد أيام صدر يوم ٢٦ مايو القرار النهائى بإلغاء أية صحيفة حزبية وهى فى مجموعها ٤٢ صحيفة ومجلة غير صحافة الشيوعيين التى توقفت من قبل. فلما جاء شهر سبتمبر بدأت الحملة ضد الجامعة وطرد أربعمائة وخمسين أستاذا ومدرسا.

أطبقت الكماشة على الصحافة والجامعة تحاصر الفكر والرأى وكانت مذبحة للعقول، وثمنا باهظا تحمله المصريون وقبلوا التضحية به ورفعوا عبدالناصر إلى مرتبة الزعامة الحقيقية. وكان أملهم مرة أخرى أن يبدأ عهد جديد وأن يتراجع السيف ليبنى القلم.

٣

أمن العقول الفارغة



•• الكماشـــة على الصحـــافــة والصحفيين وعلى الجامعة وأساتـذتها، وخيم مناخ القهر على المثقفين لـلإشتبـاه فى عدم ولائهـم للثورة. وظهـرت بـوادر الجدل حول قضية «الثقـة والكفاءة أو «أهل الثقة» و«أهل الخبرة»، ومـع ذلك ظلت الجماهير تنتظـــر انفراج الأزمة.. ••

فعبـد النـاصر الـذى تحدى الغـرب وصـافح «شـواين لاى» فى باندونج، والذى كسر احتكار السـلاح واشتراه من تشيكوسلوفاكيا الشيوعية لابد أن يتجه إلى الجماهير ليكسبها معه فى معركة التنمية ومضاعفـة الدخل.. وظهـرت بالفعل بوادر تخفيف قيـود الرقـابة.. وكان أول من أبلغنى بأن الرقابة سوف ترفع هو «أنور السادات»، وقد استدعـانى إلى مقر مجلس قيادة الثورة بالجزيـرة بالقرب من «شيراتون الجزيـرة» الآن.. وقال لى: إن الإعداد لـدستور جديـد قد تم، وكنت أكتب فى بـــاب «أدب وقلـة أدب» بـــ«آخر ســاعــة» عن «الحرية» وإلى أى حد تقف عنده.. «وكتبـت أن شيئا واحدا لابد أن نتركه حرا إلى أقصى حد وهو الأدب والفــن، وكان الدستور الجديد لم يتعرض لهما»، ولكننى أنظـر إلى المستقبل الذى يجب أن تتضح لنـا فيـه حقيقة الأديـب أو الفنان فى المجتمع، إنــه الكشــاف الـذى يستطيع للطـريق أمــام مـوكب الحيـاة، وهـو الـذى يسبق الـزمن بخيـاله، ويعـرض تقريـرا مفصــلا فى شكل أعماله الفنيـة عن كل مايمكن أن نصل إليه من تطور.. ورجل السياسة يتلمس من الأدب

والفن المبادىء الأساسية التى يتجه إليها المجتمع الذين يعيش فيه.. وهذه حقيقة ليست مقصورة على السياسة، بل العلماء فى اكتشافاتهم واختراعاتهم يهتدون بخيال من سبقهم من الفنانين والأدباء.

لقد حلم الفنان بالطائرة، وبالقمقم الذى ينفجر فتخرج منه قوة مدمرة، وهو الذى وصف فى ألف ليلة مرآة الساحرة التى تحولت إلى تليفزيون والكرة البللورية التى تحولت إلى تليفون.. ومن أجل هذا استحق الفنانون والأدباء حريتهم كاملة.

حاولت فى تلك الأيام بين ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ أن أخرج الأدب والفن والحركة الثقافية عموما من الحصار الذى فرضته كماشة الأمن، وذلك الاتجاه الذى بدأ منذ بداية الثورة، لوضع الصحافة ثم الأدب والعلم تحت سيطرة الأمن، أو تعبير آخر أن تكون استراتيجية الثقافة جزءا من استراتيجية الأمن.. وبذلك يكون محرما على المثقفين المغامرة والاندفاع فى الخيال أو الوقوع فى الخطأ، وأن يظلوا باستمرار تحت إشراف الرقيب..

وكان لابد من الكتابة فى مناخ تتراجع فيه ولو نسبيا سيطرة الرقابة بعد أن أعلن عن بدء تنفيذ الدستور الجديد فى ١٩ يونيو ١٩٥٦، بل أعلن عن انتهاء قانون الطوارىء.. وكان الدستور يضمن بنصوصه حرية الصحافة والنشر فى حدود القانون «مادة ٤٥».. وظهر فى نفس الوقت قانون جديد للصحافة يحدد ما يخضع للرقابة على سبيل الاستثناء من القاعدة التى هى حرية النشر، وشملت الاستثناءات الدفاع الوطنى، وقداسة الحياة الخاصة، وعدم المساس بالقضايا الجنائية التى ينتظرها القضاء وقضايا هتك العرض والاغتصاب وقضايا الأحوال الشخصية كالطلاق. وأن يلتزم الصحفيون بأخلاق المهنة وميثاق شرف تتولى نقابة الصحفيين إعلانه.

وقد سرى حماس بين الفنانين فى انتظار فجر الحرية، وتشجعوا على معارضة الرقابة وأرسلوا خطابات إلى الصحف تشكو من تعسف الرقيب، وأذكر من بين هذه الخطابات.. رسالة وصلتنى من جمال فارس.. وكان مذيعا فى الإذاعة الأوربية، وممثلا ودخل ميدان الإنتاج السينمائى، وهو ابن الممثل الكبير عباس فارس، وأترك للقارىء قراءة نص الخطاب، فهو أبلغ فى التعبير عن معاناة الفنان من الرقابة، جاء فى الخطاب:

«منذ ثلاث سنوات ــ ١٩٥٣ ـ أنتجت فيلم «السماء لا تنام» وموضوعه يدور حول فكرة أن الشر هو جزاء الشر، وان الخير هو جزاء الخير، وقد أرسلت السيناريو إلى الرقابة، فوافقت عليه بعد إدخال بعض تعديلات طفيفة قمت بتنفيذها جميعا أثناء التصوير، ثم أرسلت الفيلم إلى الرقابة بعد انتهاء تصويره فوافقت عليه وعرض الفيلم فى القاهرة، وفى أغلب دور العرض فى أنحاء القطر المصرى، كما أرسلته إلى السودان وشمال افريقيا وسوريا ولبنان، وفجأة منذ عام واحد أخطرتنى الرقابة بأنها منعت تصدير الفيلم إلى الخارج ولا أدرى سببا لهذا الإجراء الغريب بعد مرور سنتين على عرض الفيلم، وحتى اليوم مازال المنع قائما.

ولكن العجيب حقا ان صوت العرب أذاع نفس الفيلم المحظور تصديره إلى الخارج فى إذاعته يوم ٨ أكتوبر عام ١٩٥٥، أى فى الشهر الماضى ولاشك ان صوت العرب لا يذيع فيلما ضارا بسمعة البلاد، إنى تكبدت خسارة كبيرة فى هذا الفيلم، فهل تظن أن منتجا صغيرا مثلى يستطيع إنفاق ماله وهذا هو تصرف الرقابة معه. إنى أول من يؤمنون بفائدة الرقابة على الأفلام وضرورتها، إنها شىء غير مرغوب فيه، ولكنه ضرورى، ولا نستطيع إلغاءه تماما، وإلا استغل بعض المغامرين الفرصة

ليصوروا أفلاما مبتذلة تخدش الآداب والنظام العام، ولكنى أقترح تنفيذ النظام المتبع فى أمريكا وبريطانيا وفرنسا، وكثير من البلاد الأخرى، فتكون الرقابة من هيئة مكونة من رجال صناعة السينما أنفسهم، فلجنة الرقابة تشمل مخرجين وكتابا وممثلين تنتخبهم النقابة ليشرفوا على نظافة أفلامنا.. وخلوها من العيوب التى تخدشها، وعندئذ فقط نستطيع أن ننتج القصة الجيدة والأفلام الجيدة.. أريد أن أعرف من المخطىء، صوت العرب أو رقابة الأفلام، من يجيب على هذا السؤال؟

جمال فارس..

وقد نشرت الخطاب، وكتبت انى ضحكت حتى شعرت بالمغص ألما، وانتظرت مع جمال فارس تباشير الحرية الجديدة، وتأكد لنا ان الحرية قادمة لا ريب فيها قبل بدء تنفيذ الدستور الجديد بأسبوع واحد، عندما أصدر جمال عبدالناصر يوم ١١ يونيو قراره التاريخى بحذف الفقرة التى تعفى رئيس الدولة من النقد فى الصحافة والكتب.. وأجمعت مانشتات الصحف على أن القرار التاريخى يبدأ عهدا جديدا من الحرية بلا رقابة تتعسف أو تتحكم أو تفكر فى الأمن على حساب الفكر، وتفرض الإستقرار بإلغاء نشاط العقل..

لكن القرار التاريخى الذى يبيح نقد رئيس الدولة، انتهى يوم ٢٢ يوليو ـ عمليا ـ بقرار لوزارة الإرشاد القومى برفض الترخيص لستين صحيفة ومجلة! وأدرك الأدباء والفنانون ومعهم جمال فارس، ان انتظار ساعة الفرج سوف يطول، وهاجر جمال فارس إلى انجلترا حيث عاش هناك، ولأن مصر لا تحتاج إليه كمذيع أو ممثل أو منتج ينفق أمواله فى الانتاج السينمائى، فكل هذا لايساوى شيئا فى نظر موظف يراجع تقريرا ما للأمن ومسئولا يصدر قراره

ليطمئن على الأمن بأسلــوب إغـلاق جميع الأبـواب التى قـد تثير المشاكل، خـاصة تلك المشاكل الفكـرية والثقافيـة التى لايفهمها أو لايستطيع أن يستوعب أبعادها بوضوح، من يتخذ القرار الأمنى.

وجاء أكتـوبر ١٩٥٦ ومعـه العدوان الثـلاثى، وعـادت الرقـابة كاملة، فلما انكسر العدوان وتوج عبـدالناصر بطلا عالميا انتصر على انطـونى ايـدن رئيس وزراء بـريطـانيـا التى لم تعـد عظمى وجى موليـه رئيس وزراء فرنسا الحاقدة على تأميم قنـاة السويس التى تعتبرها فرنسية، وبن جوريون الذى يحلم بإسرائيل الكبرى.

كـان المتوقع أن تعـود البلاد إلى مسيرة الحريـة، لكن الـرقابـة استمرت وتوسعت حتى شملت فى يـونيو ١٩٥٧ مجلة «بنت النيل» وصـاحبتها د. دريـة شفيق التى تطالب بحقـوق المرأة السياسيـة تصدر قـرارا بإغلاقها. وأغلقـت بعدها مجلـة «السيدات المسلمات» عـام ١٩٥٨. وفى مقـابل ذلك تـم جمع كتـاب اليسـار فى المنفى فى صحيفة المساء تحت رئاسة خالد محيى الدين، وصدر العدد الأول منها فى ٦ أكتوبر ١٩٥٦، وكانت قد سبقتها جريدة أخرى فى يونيو ١٩٥٦ هى «الشعب» أشرف عليها صلاح سـالم، وكلاهما ـ المساء والشعب ـ سـوف تواجهان مصيرا معتما، فقـد إضطرت «الشعب» إلى الإغلاق بـالاندماج فى صحيفة «الجمهـورية» فى سبتمبر ١٩٥٩، أما صحيفـة «المساء» فقد واجهت فى ابريل ١٩٥٩ حملـة اعتقالات وتطهير لكتابها ومحرريها اليساريين فانتقلـوا من المنفى فى جريدة مسائية إلى السجن؟!

وكنت أحـاول فى تلك الفترة ـ السنـوات الأولى ـ من الثـورة، أن أعـرف عقليـة الـرقيب بفضـول الـروائى، وكنت أرى ان الفهم الإنسانى أهم من الفهم السيـاسى، وكانت بينى وبين أديبنا الكبير الـراحل يحيى حقى مناقشـات فى هـذا الموضوع لأنـه قضى فترة

يعمل مديرا لمصلحة الفنون، وكان يدعونى لحضور مراقبة بعض الأفلام الأجنبية، وكان رأيه الذى يردده بإصرار انه يؤمن بالحرية، وأى تقدم وتطور فى مجتمعنا لن يتحقق إلا فى ظل حرية التعبير، وكان يريد أن تكون الرقابة على الأفلام التى يشاهدها الكبار مقصورة على المناظر المخلة بالآداب العامة والتى تخدش الحياة.. وكان يشكو لى من الرقباء الذين يشرفون على الرقابة، ثم يقول بصراحة وبمشاعر إنسانية «انهم خائفون»، ومن الممكن أن يكون تعريف الرقيب هو «الرجل الخائف»!! وناقشت رقباء واعترف لى أحدهم قائلا:

— نحن فى بلد يعيش فى مفترق طرق، وفى مفترق الزمن أيضا، وقد أرى مشهدا فى أحد الأفلام ليس فيه مايخل بالآداب العامة، ولكن الشيخ «فلان» فى معهد أسيوط الدينى قد يرى فى نفس هذا المشهد فجورا دائما ودنسا، وقد يستشيط الشيخ غضبا فيرسل برقية إلى الوزير يشكو فيها من عرض هذا المشهد.. وتكون ضجة، ويسأل الوزير — الذى لم يشاهد الفيلم - وكيل وزارته، فيرى وكيل الوزارة أنه من الأسلم والأضمن أن يقول: إن الفيلم لايصلح للعرض، وفجأة يجد الرقيب نفسه قد ارتكب خطأ هو المسئول عنه، بل هو رجل مستهتر يبيح عرض مشاهد فاجرة آثمة على الناس، لذلك وكى يضمن الرقيب راحة البال تراه يحذف كل مشهد يتصور أو يتخيل أن هناك شخصا ما فى مصر سيعترض عليه.. فهو يحذف ماقد يثير أصحاب عمائم، أو مهندسين أو أطباء، أو محامين، أو مدرسين، أو ممرضات، أو أى مخلوق قد يرفع صوته فى هذا البلد!!

وهكذا امتدت سياسة الأمن، إلى سياسة راحة البال، على حساب الثقافة أوالتفكير أو النشاط الأدبى والفنى، ولم يتنبه أحد أن هذه

السياسة الأمنيـة، لابد أن تنتهى إلى دعم القوى التى تهاجم الأمن، لأنها لا تأخذ موقفا تدافع عنـه، بل تكتفى بإغلاق الأبواب التى قد تهب منها الـرياح.. فإذا كان الدستـور أو القانون يحميان حـرية الرأى وهـى حق الطلبة والطـالبات والأساتـذة فى الحرم الجامعى، فقد وصل بنـا الأمر إل أن حرس الجامعـة يتقدم إلى الطـالب الذى يتحـدث مع طـــالبـة.. ويطلب منهما الابتعـــاد عن بعضـهما وقطع الحوار الـذى يـــدور أمـام الجميع فى حـــرم الجامعـة.. لماذا؟ لأن الحرس لايريـد أن يثير مشاكل مع إرهاب يهدد الطلبة والطـالبات، لايفكر فى حماية حق الطلبة فى الحوار والكلام، بل يفكر فى المشاكل التى قد تنجم عن ممارسة الطلبة أو الأساتذة لحقوقهم البسيطة فى الكلام، والمسئـولون فى كل مكان لايـريدون إثـارة مشاكل، بمعنى أنهم لايريدون التورط فى الدفاع عـن سياسة ثقافية لأن المطلوب فى الحقيقة، هو الأمن والهدوء وعدم ارتفاع صوت، وإخماد أى مشكلة قبل أن تظهر.

ولنتيجة إخماد كل حياة فكرية أو اجتماعيـة وتفريغها فى خدمة أصـوات تفرض وجـودهـا فى الفراغ بـالتهـديد والإرهـاب.. تحول الرقيب الخائف إلى مسئـول خائف، محافظ خائف.. رئيس جـامعة خائف.. وزير خائف.. لاأحد يدافع عن شىء له قيمته.. لأن الشىء الـوحيد الـذى يخاف من فقدانـه هـو الإخلال بـالأمن، وبالغـوا فى الحرص، حتى انفجرت مشكلة الأمن فى فراغ ثقافى وسياسى.

ومن حقى أن أقول إنى نبهـت إلى هذا الخطر منـذ عام ١٩٥٥. وكتبت بالحرف الـواحد فى باب «أدب وقلـة أدب» بـ «آخر سـاعة» إننا لن نتقـدم ولن نتطور حتى نفضح أنفسنـا ومجتمعنا ونـواجه كل مافيـه من مشاكل بصراحـة، هذا هـو الطريق الـذى اتخذناه.. عنـدما أعلنـا أمام الـدنيـا كلها أنـه كـان بيننا مـرتشون وأذنـاب

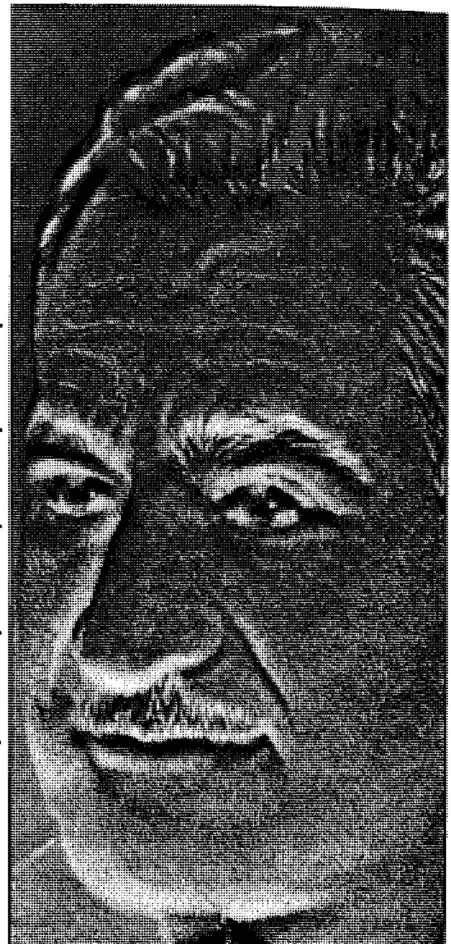
استعمار وخونة، وأقمنا لجان تطهير ومحاكم للخـونة.. وطالبت أن تكـون منابـر الصحف والمسرح والسينما والكتب بغير وصايـة من الرقـابة حتى نعرف حقيقة أمـراضنا، لأن معرفـة الحقيقة هى أول درجات الشفاء.

كان رأيى أن الثـورة عندما قامت فضحت قطـاعا من المصريين بـاسم الخيانـة والاقطاع، ولم يقـل أحد أن هـذه الفضيحة تـؤذى مصر، بل كـانت لصالحهـا ولمعالجة الفساد وتطهير نظـام الحكم، فلماذا نعـود ونغلق أبواب الصراحـة ونفرض الـرقابـة ونخشى أن تكون للثقافة ولحرية الكلمة القيادة.

هل كنا نخشى على أمن مصر، أم أمن حكـام وقيادات، لكن هذا السـؤال كان غير واضح تمامـا فى تلك الفترة التى كانت تمر فيهـا مصر والأمـة العربيـة بمـرحلة غليـان، وتتجـه مصر تحت زعامـة عبدالنـاصر إلى الوحـدة مع سـوريا.. وكـان الصبر والاحتمال ثمنا يـدفعه المصريـون مقابل جـائزة كبرى هـى الوحـدة يقدمهـا زعيم وبطل حقيقى هو جمال عبدالناصر.

والأحلام مـازالت بلا حـدود.. ومازلنا لانعـرف على وجه الـدقة معنى أغنية أم كلثوم للصبر حدود.

٤



عبدالناصر وما يجرى فى بيوت الصحفيين

❝ تـوقعت أن تكون الـوحدة مع سـوريا سببـا لفتح الأبـواب لحرية الرأى والتعبير.. فإذا كـانت الرقـابة قـد استمرت بعـد الانتصار على العـدوان الثلاثى.. فلا مبرر لاستمرارها تحاصر حرية الفكر بعد تحقيق الـوحدة مع سـوريا.. ولقد كـان جلاء القـوات البريطـانية عن مصر بمثـابـة جـلاء عن عقولنا قبل أن يكون جلاء عن أراضينا ❞

وهـاهى ذى الوحـدة مع سـوريـا تفتح الأبواب على مصراعيهـا لحوار بين الشعـار الـذى رفعته ثـورة يـوليـو «حريـة اشتراكيـة وحـدة»، والشعـار الـذى يـرفعـه البعث القـومى «وحـدة حـريـة اشتراكية» ولقـد أراد عبدالنـاصر أن يواجـه البعث وسعيـه للهيمنة على العالم العـربى بأن يقدم الحريـة على الوحـدة ولكنه لم يطمئن تماما لفتح البـاب للحرية وهـو يواجـه عدوانا خـارجيا كشف عن رغبة بعض قيادات الاقطاع والمثقفين فى الاحتماء بإنجلترا أو فرنسا ضـد مـا يعتبرونـه مظـالم وأخطـاء الثـورة والضرر الـذى لحق بمصالحهم منذ سقوط النظام الملكى.

وكانـت إنجلترا وفرنسا تعلنـان صراحة عن تعـاملهما مع مصر بمبـدأ القـوة وقـال «بيرسـون ديكسـون» منـدوب إنجلترا فى الأمم المتحـدة يبرر الاعتداء البريطـانى الفـرنسى المسلح على مصر :«إن القـوة يجب أن تستعمل فى الشرق الأوسط.. لأن عقليـة العـرب فى تلك المنطقـة لاتفهم إلا لغـة القـوة، ولا فـائدة من إخضـاع الشرق

الأوسط للنظام والقانون إلا بهذه الوسيلة!! وكان البعث يرى أن وحدة العرب والقومية العربية هى الوسيلة لمواجهة استعمار الغرب.. أما عبدالناصر فأراد أن يبدأ بالحرية ولكنه تردد فى الاعتماد عليها، واكتفى بثقة الجماهير بزعامته دون أن يطلقها تتفاعل بالحرية أو يسمح بالحوار المفتوح حول اختيار بوابة الديموقراطية كمدخل لبناء القومية العربية، أو دخول «بوابة القومية» لتحقيق الحرية واستقلال الإرادة العربية.

ولكى يتخلص عبدالناصر من هذا الجدل «المأزق» بين الحرية والوحدة.. اختار الكلمة الثالثة فى الشعار وهى «الاشتراكية» باعتبار أنها لمصلحة الجماهير التي تؤيده وبايعته زعيما.. وكان من الصعب أن يجد بين الصحفيين الكبار من يؤيده فى طريق الاشتراكية فهى غريبة عن عالمهم الذى ارتبط بالكفاح من أجل الاستقلال والدستور الذى يكفل الحريات للمصريين.

وكان من المستحيل أن تتصور مصطفى أمين وعلى أمين، أو فكرى أباظة، أو محمد حسنين هيكل أو حتى إحسان عبدالقدوس دعاة للاشتراكية فالجميع لهم أحلام ليبرالية. وهنا بدأ يبرز دور الكاتب السياسى الشاب أحمد بهاء الدين والذى اختار على الفور الاشتراكية.. وله مقال هام نشره فى ٥يونيو ١٩٥٨ فى مجلة صباح الخير التى يرأس تحريرها تحت عنوان «حكاية الإيديولوجية العربية» يضع فيه خطوطا فاصلة بين الاتجاه إلى القومية أو الاتجاه إلى الليبرالية ويختار طريق الاشتراكية.

وفى هذا المقال كتب أحمد بهاء الدين « إن عبارة ــ إيديولوجية عربية ـ فى حد ذاتها تحمل كثيرا من أساليب اللبس والاضطراب، فنحن حين نقول «إيديولوجية.. نقصد فى الواقع «عقيدة اجتماعية» فى حين أن «العربية» صفة قومية لااجتماعية بمعنى أنه هناك

إيديـولوجيـة اشتراكية و«إيديـولوجيـة شيوعية».. و«إيـديولـوجية رأسمالية» فى حين ليس هناك شىء اسمه «إيديولوجية إنجليزية أو ألمانية أو فرنسية».

وهكـذا كان بهاء يعلن بـوضـوح أنه يقف فى نفس الخنـدق مع عبدالناصر فى اختياره الاستراتيجى.

وقـال بهاء : إن عبـارة «إيـديولـوجيـة عـربيـة قـد كشفت عن اتجاهين خـاطئين وخطيرين.. وإن كانـا على طـرفى نقيض.. الاتجاه الأول يظن أصحابـه أن وصف العقيدة بأنها عـربية يعطيهم الحق فى أن يخترعـوا أى شىء.. وهـذا بالطبـع هراء.. كمحـاولـة اختراع سيـارة دون الأخـذ بالقـواعـد العلميـة الخاصة بـالسيـارة والتى تجعلها تسير.

أما الاتجاه الثانى فيرى الأيديولـوجية العربية اشتراكية.. وكأنها جسم صلب لاصلة له بـالبشر.. يمكن أن نخرط منها بنفس المقص آلاف ومــلايين القطع المتشـابهة.. وبعــد أن تســاءل بهاء.. أين الصواب؟ قـال هو أن تكـون إيديولـوجيتنا اشتراكيـة فى جوهـرها تتفق مع الاشتراكية العلمية.. كما تكـون عربية بمعنى أنها تستلهم فى خطـواتها ظــروف الشعب العـربى السيـاسيــة والاجتماعيـة والنفسية والاقتصادية.

ومع بهاء بدأ ظهـور كتاب الثـورة يريدون التفكير والمنـاقشة.. وشجع إحسان عبدالقدوس حريـة المناقشة فظهرت فى نفس الوقت كتابـات أخرى فى روزاليوسف وصبـاح الخير تطالب بـالاشتراكية كـان من أبـرزها مـاكتبـه كـامل زهيرى.. وكان يصر على حـريـة المناقشـة ويستخدم تعبيراتـه الخاصة مثل «عـزل الجماهير ومنع تجول الحرية» ليـؤكد أن «الاشتراكيين» عادة لايخلبهم مـايقام من لافتات.. الاشتراكيـون لهم حاسـة الحذر التى تجعلهم يتسـاءلون

دائما : أين الحقيقة داخل الهياكل الشكلية.. فأنورين بيفان عامل المنجم الذى أصبح وزيرا اشتراكيا، قال: إن البرلمان بدأ فى إنجلتر فى عام ١٥١٧م ولكن الديموقراطية الحقيقية بدأت فى عام ١٩٣٠ حين تساوت المرأة بالرجل.. والعبرة فى رأيى - رأى كامل زهيرى - متى ينتهى عزل الجماهير عن الاشتراك فى الحكم أو متى تشترك فعلا بتمثيل حقيقى غير مزيف فى المسئولية والسلطة.

ولاشك أنى دخلت معهما فى الدعوة إلى الاشتراكية، ولكنى لم أحددها بقواعد علمية وقيدت تصورى لها بأنها لاتشكل قيدا على حرية الأديب والفنان.

كما اكتفيت بالأفكار السياسية دون أن تدخل المعترك السياسى كما فعل بهاء عندما قطع برأى بين الاشتراكية والبعث، وجاءت هذه الدعاوى للاشتراكية، أقرب إلى الاشتراكية الديمقراطية الأوروبية منها إلى الشيوعية مما جعل الشيوعيين المصريين يرفضونها والبعثيين القوميين يهاجمونها.

وفى تلك الفترة بدأ عبدالناصر فى التفكير لتغيير قيادات الصحافة بقيادات جديدة مثل أحمد بهاء الدين وكامل زهيرى ومثلى.. ولم يحدث اتصال مباشر بى، بل كنت — كما عرفت فيما بعد - موضوعا تحت المراقبة بمعناها السياسى وحدث ذات يوم أن دخلت أخبار اليوم وقابلنى مصطفى أمين باسما وقال لى:

— أنت بالأمس كنت ساهرا فى بيت محمد التابعى، وأضاف وهو ينظر فى عينى يرقب وقع كلماته.

— وحدث كذا وكذا.. وأنت قلت كذا وكذا.. وكان مايقوله صحيحا.. فقلت له على الفور:

— هل يحكى لك الأستاذ التابعى كل هذه التفاصيل عما يحدث فى بيته؟

فإذا به يضيف قائلا:

— أبدأ .. التابعى لم يتصل بى.

فسألته فى دهشة:

— وكيف عرفت إذن ؟

قال ببطء وهو يراقب علامات الدهشة ترتسم عن وجهى:

— الذى قال هذه التفاصيل عبدالناصر!

وكنت أعلم أن الأستاذ التابعى يتصل يوميا بالرئيس عبدالناصر، وكذلك مصطفى أمين. ولكن لم أتصور أن عبدالناصر حريصا على سماع كل كبيرة وصغيرة وأنه يخرج من وحدته بأن يتابع مايحدث فى بيوت الناس ويستمع إلى مايدورمن حديث عادى ونكات.. وفى نفس الوقت يعرف مايريد من معلومات، وفى مثل هذا الجو كان الجميع تحت رقابته المباشرة إلى جوار رقابته غير المباشرة عن طريق تقارير الأجهزة!

وحدث فى عام١٩٥٩ أن اتصل بى على صبرى وكنت عائدا من فرنسا مع وفد من الصحفيين المصريين.. وكان هذا هو أول اتصال لى به، فسألنى عن انطباعى عن الزيارة، وإذا كنت قد حضرت مأدبة غداء دعت إليها وزارة الخارجية الفرنسية، فأبديت له أسفى لأنى اعتذرت عن عدم حضور المأدبة وفضلت زيارة متحف اللوفر! فأبدى دهشته.. وقال: إن العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع فرنسا منذ العدوان الثلاثى، وهذه الدعوة من الجانب الفرنسى تحمل رسائل غير مباشرة بين السلطات فى فرنسا ومصر، وقال إنه سمع ماقاله الصحفيون الذين حضروا المأدبة وكان يريد أن يسمع رأيى..

وفجأة قال لى إن البلد — مصر - سوف يحدث فيها تغيير كبير.. محوره أن أكبر دخل فى مصر لايجب أن يزيد على ثلاثة آلاف جنيه

فى العام بمعدل مائتين وخمسين جنيها فى الشهر.. وقال: إن هذا المبلغ يكفى لحياة مريحة ومستوى معيشة مرتفع ولا داعى لأكثر من هذا.. ثم أضاف إنه لابد أن يكون هناك سيطرة للدولة على المواصلات والدواء.. وكانت المواصلات فى القاهرة فى ذلك الوقت امتيازا يملكه المليونير أبو رجيلة رئيس نادى الزملك وكان الدواء مملوكا لشركات أجنبية بعضها يملكها المليونير أحمد عبود.. وقال لى على صبرى: إنه لايريد منى إذاعة ماسمعته فهذه أسرار، ولكنه قرأ ما اكتبه ويرى أنى أستطيع أن أشرح الاتجاهات السياسية المقبلة للقراء.

وكان أول ما فعلته هو أنى تحدثت مع إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير روزاليوسف ـ وصاحبها ـ فيما سمعته، فأبدى دهشته، وقال غير مصدق: إن هذا أمر خطير.. ونصحنى بتكتم الأمر.

كان غير واضح لى أو لأى أحد أن هناك اختيارا للاشتراكية ـ دون تحديد واضح لمعالمها ـ قد تبناه عبدالناصر، وكان يعد للخطوات التالية، وقد قرر السيطرة الكاملة على الصحافة، وكانت قد انحصرت بعد إلغاء الصحافة الحزبية وإلغاء عشرات الرخص لصحف ومجلات سياسية ونسائية وثقافية.

انحصرت فى دار أخبار اليوم وصاحبيها مصطفى وعلى أمين ودار الهلال لصاحبيها أميل وشكرى زيدان ومعهما شريكهما ورئيس تحرير المصور فكرى أباظة.. والأهرام وصاحبه عائلة جبرائيل تكلا وروزاليوسف وصاحبها ورئيس تحريرها إحسان عبدالقدوس.. وهذه الدور الصحفية الأربع ليست حزبية ولاشك أن لها تأثيرها فى الشارع المصرى بدرجات متفاوتة وأساليب واتجاهات مختلفة.

وكانت نظرات عبدالناصر تراقبها وتحاصرها بأساليبه المباشرة وغير المباشرة.. ورأى أنه لن تفيده فى اختياره الاستراتيجى للاشتراكية، التى أراد أن يرتبط بها من أجل الجماهير فى مصر - الإقليم الجنوبى - وسوريا الإقليم الشمالى للجمهورية العربية المتحدة.. متحديا حزب البعث مؤجلا مرة أخرى اختيار الحرية.. وفى نفس الوقت مصادرا على الحركات الشيوعية التى تعمل تحت الأرض وتهاجمه وتتهمه بالطموح الشخصى كنابليون بونابرت.

وجاء صباح يوم ٢٤ مايو ١٩٦٠ ، وكنت قد استيقظت مبكرا على غير عادتى، وخطر لى أن اذهب إلى نادى الجزيرة.. وهناك طلبت إفطارا فى الليدو وكانت الساعة السابعة والنصف صباحا ولا أحد حولى، وبينما أتناول الإفطار جاء الجرسون يقول لى: إنى مطلوب على التليفون.

وكان أمرا غريبا أن يعرف أحد بوجودى فى النادى فى هذا الوقت المبكر على غير عادتى.. وأنا شخصيا كنت لا أعرف أنى سأحضر إلى النادى وأتناول إفطارى.. فقد كان الأمر كله مجرد استجابة لاندفاع تلقائى عفو الخاطر واللحظة.. فمن هو الساحر الذى رأى فى كرته البللورية أنى تحركت إلى هذا المكان؟

وسمعت صوت منير حافظ مساعد سامى شرف يتحدث ضاحكا:

— نحن نستطيع الوصول إليك وإلى من نريد الاتصال به فى الحال.. تعالى فورا إلى هليوبوليس لاجتماع هام.. لابد أن تحضر قبل التاسعة!

٥

تاهت الحرية بين اليسار واليمين والإخوان



❞ أسرعت صباح ذلك اليوم ٢٤ مايو ١٩٦٠ إلى الاجتماع المفاجىء الذى دعيت إليه بمقر رئاسة الوزارة بهليوبوليس.. ودخلت قاعة يجلس فيها كبار الصحفيين مصطفى وعلى أمين وفكرى أباظة وسيد أبو النجا.. الجميع ماعدا إحسان عبدالقدوس الذى كان مسافرا فى أوروبا.. جلست فى مقعد وكأنى فى سرادق عزاء وهمسات بين الحاضرين تنقل إلى بملامح الوجه ولهجة السؤال الهامس مانراه على وجوه المعزين ونسمعه فى لهجتهم وهم يتساءلون عن الأسباب التى أدت إلى وفاة الفقيد.. ❝

واستدعينا إلى قاعة أخرى وجاء على صبرى وقرأ نص القانون ١٩٥٦ بتنظيم الصحافة.. انتهت الملكية الخاصة لدور الصحف الأربع ـ الأخبار والأهرام والهلال وروزاليوسف ـ وتقرر أن يكون أصحاب الصحف بين رؤساء أو أعضاء مجالس إدراتها، أما الملكية فللشعب وللمحررين وعمال المطابع والإداريين ولهم نصيب فى الأرباح وجاء فى ديباجة القانون الكلام عن سيطرة رأس المال الخاص على الصحف، لذلك انتقلت الملكية إلى الشعب الذى يمثله الاتحاد القومى.

غادرت الاجتماع إلى روزاليوسف، كان قد تم الاستيلاء على المبنى والمطابع وسعد عفرة من الضباط الأحرار يجلس على مقعد

إحسان عبدالقدوس ومعه يوسف السباعى عضوا منتدبا، وكان من حسن حظ المؤسسة الاحتفاظ بمديرها العام كمال عزب عضوا فى مجلس الإدارة، وكان قد شرع فى بناء دار جديدة للمؤسسة تنتقل إليها بشارع قصر العينى.. وقد تولى البناء الدكتور سيد كريم الذى صمم بناء أخبار اليوم.. وكان إحسان قد اقترض هو وعائلته حوالى مائة ألف جنيه من البنك فى عملية البناء الذى انتقلت ملكيته إلى الاتحاد القومى بينما ظل الدين باسمه واسم عائلته، فأصبح فى موقف لايحسد عليه.. استدان من البنك ليبنى دارا صحفية يقدمها للدولة!

وكانت حالات مشابهة بصورة أو بأخرى فى الدور الصحفية الأخرى وشاع أن الدولة مفلسة تستولى على دور الصحف.. بينما انتبه كثيرون إلى أن الثورة تتجه إلى اشتراكية مركزية، وتنظيم الصحافة أو تأميمها.. هو مقدمة لتأميمات أخرى شاملة وهو ماحدث بالفعل فى يوليو ١٩٦١ بالقوانين الاشتراكية.. المجيدة.

ودعا جمال عبدالناصر إلى اجتماع حضره أعضاء مجالس الإدارات الجديدة، وكان إحسان عبدالقدوس قد عاد مسرعا من الخارج ليعلن تأييده لما حدث .. وفى نفس الوقت اشتد قلقه على ديون ثقيلة تورط فيها.

وفى الاجتماع واجه عبدالنصر مباشرة شائعة إفلاس الدولة.. وأنها صادرت مبانى ودورا صحفية لأنها فى حاجة إليها، وقال موجها كلامه لأصحاب الصحف : إن الدولة ليست فى حاجة إلى الأحد عشر طابقا التى ارتفعت فى أخبار اليوم. وكان واضحا أنه يرد على ماقرأه فى التقارير.

فقال بتأكيد غير عادى أن النظام قوى وثابت الأركان ولاتوجد قوة تستطيع أن تهزه، وكان غير مستعد للمناقشة فقد خصص

الاجتماع لهدف أساسى وهو إثبات قوة النظام واستعداده للبطش بأى احتجاج من جانب الذين فقدوا ملكية دورهم، وكان فيما يبدو تجربة لما سوف يأتى فى المستقبل.

وفى نفس الوقت وضع عبدالناصر مبادىء رقابية بمفهوم سياسى اشتراكى يتفق مع ماسبق أن سمعته من على صبرى منذ شهور عن ضرورة تحديد الدخل، وحاول سيد أبو النجا أن يتحدث عن قواعد الإدارة فلم يسمح له بمواصلة الكلام، وحاول إحسان عبدالقدوس أن يتحدث عن فن الصحافة حتى لاتتحول الصحف بعد القانون الجديد إلى نشرات غير مقروءة.. فغضب عبدالناصر وقال بحدة: إنه لايقبل أن تباع الصحف بالدعارة، وهاجم صباح الخير وكنت رئيسا لتحريرها لأنها تنشر رسوم الكاريكاتير للرسام حجازى والمرأة فى رسوم حجازى لها نسب مثيرة فى أردافها - الرسوم كاريكاتورية! - وهاجم النكت والرسوم التى يظهر فيها الزوج مخدوعا والزوجة تخبىء رجلا فى الدولاب.

وقال بلهجة حاسمة لاتخلو من تهديد: إن مصر ليست النساء المطلقات فى نادى الجزيرة.. مصرهى كفر البطيخ.

ولقد أحدث هذا الاجتماع هزة عنيفة، جعلت الصحف تردد كل يوم اسم كفر البطيخ وتملأ صفحاتها بتحقيقات عن كفر البطيخ، وقد كتب الأستاذ سعدالدين وهبة مسرحية باسم كفر البطيخ وهى بمقاييس الفن مسرحية ناجحة، ولكنها ساهمت فى إطلاق الكثير من النكت عن مصر التى تحولت إلى كفر البطيخ.. بينما اختلت موازين الحوار والجدل بين أفكار.. وأفكار.. فقد صدر قانون تنظيم الصحافة ضد التقاليد والقواعد القديمة والتيار الليبرالى الذى كان يتساءل إلى متى تستمر الثورة فى استخدام أسلوب القوة.. أو الذى كان يعتقد أن التحول فى اتجاه الاشتراكية سوف يكون ديمقراطيا.

واذكـر أنى كنت اكتـب افتتـاحيـات لـروزاليـوسف عن معنى المعارضـة فى مجلس الأمة قـائلا: إن الشعوب تؤيـد الثورات، حين تستخـدم القوة فى تنفيـذ مبـادئهـا، وفى القضاء على أعـدائهـا لكن الشعـوب ترفض بعـد ذلك أن تشعـر بأنها خـاضعة لحكم القـوة المجردة، وأنها تنفذ القانون وتحترمه لـوجود قوة خلفه تفرضه ولا شىء آخر.. الثـورة التى لاتغير أسلوبها فى الحكم ولا تحول قـواها الثائرة إلى تقاليد ثابتة تصبح طغيانا مكروها من الجميع.

وكـان عبـدالنـاصر يتحدث للجماهير قـائلا: إن القـوة لاتقـاوم الفكـرة، وإننا يجب أن نـرد على الأفكـار بـالأفكار. فكتبت أن هـذا الإعـلان له أهميـة لصدوره من قـائد الثورة نفسـه، مما يـدل على وعيـه العميق بالتطـور الضرورى فى أسلـوب الحكم، وقد رأينـا فى تاريخ العالم حكـاما وقادة ديمقراطيين يتطـورون إلى ديكتاتوريين يجمعون السلطة المطلقة فى أيديهم، ونادرا مـانرى حكاما يمتلكون السلطة المطلقة والقوة ويتخلون عنهما فى حكمة ووعى.

وهاهو ذا قانون تنظيم الصحافة يقول: إن عبدالناصر لم يتخل عن القوة، ولم يأخذ بعد برأيـه الذى أعلنه.. أن القوة لاتقاوم الفكرة بل الفكـرة هى التى تقـاوم الفكـرة، وكان واضحـا أن أمن النظـام وقـوتـه وتثبيت دعـائمـه هى الاستراتيجيـة التى يتحـرك بها عبدالنـاصر، وفى ظلها، وهى التى أملت عليه أن يسيطـر على الدور الصحفية فى البلاد سيطرة نهائية.

فـاليسـار انقض على أخبـار اليـوم ومصطفى أمين وعلى أمين.. وكنت أسمع فى روزاليوسف هجومـا حادا على الريدرز دايجست .. فأتذكر أنى كنت أعمل مع على أمين كل يـوم فى إعداد مجلة المختار المأخوذة عن الـريدرز دايجست الأمـريكية، وكنت شغوفـا بتجارب اللغة والكتـابة البسيطة التى يفهمهـا ويستوعبهـا القارىءالبسيط،

وأتابع مع على أمين تجاربه فى إلغـاء نون النسوة والمبنى للمجهول الذى قد لايساعد القـارىء على معرفة الفاعل فى الجملة، وكنت أرى أنها تجارب مفيدة وليسـت خيانة وطنيـة.. لكن الاتجاه العـام لدى اليسـار كان هـو محاولة هـدم «اليمين الرجعى» وفى نفس الـوقت كان الاتجاه العام لـدى اليمين أو أخبار اليوم هو مهـاجمة اليسار الشيوعى الكافر الملحد، بينما هاجم تيار الإخوان المسلمين الجميع، وإن كان يتحـالف أحيانـا مع اليمين ضد اليسـار باعتبـاره العدو الرئيسى.

وفى هـذا البحـر المتـلاطم من الصراعـات حـاولت أن أبحث عن مفهـوم الاشتراكية التى يتحـدث عنها عبـدالناصر.. وكنت لم أقـرأ عنهـا فقـد شغلت سنـوات دراستى بقـراءة مكثفـة فى الفلسفـة والتـاريخ وتـابعت تـاريخ الحضـارات دون أن انحـاز إلى مـوقف سياسى يورطنى فى تنظيم أو حزب أتقيد بتعاليمه ومبادئه.

وكـان كل شىء مختلطا.. اذكـر أنى راجعت كلمة اشتراكيـة فى دائرة المعارف البريطانية لأعـرف ماذا تعنى، وأعطانى كامل زهيرى كتابـا ضخما عن الاشتراكية لكروسلانـد أفزعنى عندمـا علمت منه أن هناك مائتى مدرسة ومذهبا فى الاشتراكية.

وكتبت مقـالا أحاول أن أبسط فيـه مفهوم الاشتراكيـة كما ورد فى دائرة المعـارف، فإذا برجل من المخـابـرات يقول لى بصفـة غير رسمية: إن ماكتبته هو الشيـوعية وليس الاشتراكية التى ينادى بها عبدالناصر.. فقلت لـه: إن ماكتبته من قراءة للانسيكلوبيـديا فنظر إلىّ نظـرة غير المصـدق لما أقـولـه.. فـزاد يقينى أن الحديث عن الاشتراكية وارتبـاطه بقـانون تنظيم الصحـافة يـدخل فى سيـاسة الأمن وليس فى سياسـة الثقافة أو حريـة التعبير والفكر.. ومع ذلك كان لابد من محاولة تحديد المعـانى.. فالاشتراكية عند بهاء علمية،

وعند إحسان موقف من السلطة وتأييدها كصاحب خبرة فى السياسة، وعند مصطفى أمين وعلى أمين خطر داهم.. وعند هيكل طريق جديد مفتوح سوف يكون أول من يحمل أخباره إلى القارىء بتفسيراته وشروحه الصحيحة، وهى ــ الاشتراكية ـ عند أغلب الشيوعيين بونابرتية تعبر عن طموح وجموح فردى لعبدالناصر، وهى عند آخرين رأسمالية دولة، وهى عند الإخوان المسلمين انحراف عن الصراط المستقيم، وكان الاهتمام بالمواقف الخاصة سببا فى الانشغال عن الوصول إلى الاتفاق الأدنى بين الجميع على أهمية احترام الرأى وحرية التعبير، وكل يغنى على ليلاه، وكل يتمنى سقوط الآخرين.

وسط هذا الغليان المكبوت، فاجأ عبدالناصر الجميع بالقوانين الاشتراكية، التأميمات والمصادرات وتحديد الدخول وفرض الحراسات، وكان من المستحيل أن تطلق حرية الفكر فى مواجهة هذه الإجراءات.

فلم يسمح للصحف إلا بنشر التأييد.. ولكن الرفض والخوف كانا منتشرين فى كل مكان، وسرعان ماأدرك عبدالناصر أنه لايستطيع أن يفرض سياسة اشتراكية أو غير اشتراكية دون أن تكون هناك تهيئة إعلامية لها بين الجماهير، وقد أدرك هذه الحقيقية بقوة بعد انفصال سوريا التى رفضت القوانين الاشتراكية فكانت الدعوة التى وجهها عبدالناصر لفتح أبواب الديمقراطية وحرية الرأى من خلال لجنة تحضيرية تنشر وعيا بما هو مطلوب للمجتمع، لأنه بغير الوعى الحقيقى قد تتحول الثورة إلى مجرد هياج يضر ولاينفع وجموح بلا عمل، وفوضى بلانظام.

ودار حوار قوى أذاعه التليفزيون فى اجتماع اللجنة التحضيرية

فى نوفمبر ١٩٦١ بين عبدالناصر والأستاذ خالد محمد خالد الذى فتح الحوار فى مشروعية الثورة نفسها.. وهل نحن فى ثورة أم هى مرحلة من مراحل التطور الطبيعى، وقال خالد محمد خالد الكثير مما كان يردده الخائفون عن الحرية ومعناها، وما هى حدود قيودها، الأحزاب وهل تعود إلى التعدد الحزبى أو نظام الحزبين أو الحزب الواحد أو لانعترف بها، وماذا عن المستقبل وكيف نتصوره، وخيل إلى من يسمع الحوار أنه يستطيع مناقشة رئيس الدولة ويطالب بمراقبة تصرفات الحاكم وسؤاله أى استجوابه بل وتغييره إذا أراد.

وتمخضت الاجتماعات عن إعداد الميثاق الوطنى وتحويل الاتحاد القومى إلى اتحاد اشتراكى دون أن يحدث تغيير حقيقى فى سيطرة الرقابة.. فلقد جاء الاتحاد الاشتراكى ليحدد أن «الحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب» هكذا صدر الحكم بتقسيم المجتمع إلى أعداء ومؤيدين، وهكذا عكس الاتحاد القومى الذى كنت أتصوره كما كتبت فى افتتاحيات روزاليوسف، يسمح بتكتلات متباينة التفكير ولكنها متعاونة فى نفس الوقت، تنظر إلى مصلحة المجموع وتراعى ظروفنا التى نمر بها ، لقد سقط هذا المعنى وقد أزعجنى وظهر هذا الانزعاج فى روايتى تلك الأيام وكنت أكتبها فى نفس تلك الفترة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢

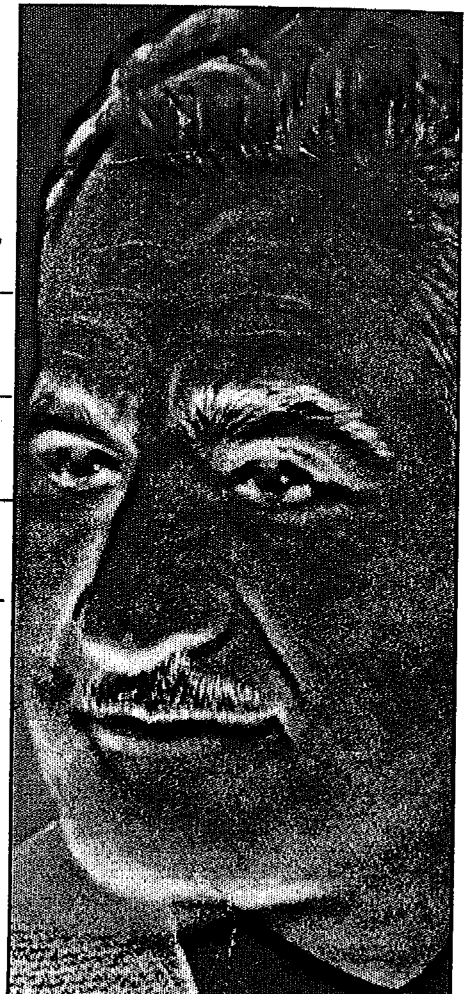
لقد فقدنا معنى الولاء للمصلحة العامة وسط دوامة الصراع بين تيارات ومصالح مذعورة.. وبهذه المناسبة قررنا فى مجلس إدارة روز اليوسف أن تتحمل المؤسسة دين إحسان وعائلته المخصص لبناء الدار ولم نستشر أحدا، وكان القرار شجاعا بوقوف يوسف السباعى مؤيدا له، وكان عادلا، ولكن كان هذا هو النجاح الذى يستطيع أن يحققه صاحب القلم.. أن يحافظ على حقوقه المادية

وسط الصراع الذى فرض الرقابة الصارمة على حرية التفكير، ليوجهها فى طريق دعوة للاشتراكية غير محددة المعالم بدعوى أنها نابعة من واقعنا، ولا تمتحنها أفكار ناقدة أو معارضة.. بل يقتصر امتحانها على تقارير تتداولها أجهزة تهتم بالأمن وليس اهتمامها بالأفكار، ومن أجل هذا الاهتمام بالأمن ظهر التنظيم الطليعى السرى، وفوجئت بدعوة لأن اضم إليه.. دعوة أولى جاءت عن طريق الدكتور عبدالقادر حاتم فى مكتبه.. ودعوة أخرى جاءت عن طريق أحمد فؤاد رئيس مجلس إدارة بنك مصر.. أيضا فى مكتبه فى البنك، وكان كلاهما يطالبنى بالسرية المطلقة وأن أحدا لايعرف بأمر التنظيم.

ولقد تناولت هذا الموقف فى رواية زينب والعرش، وكيف انتهت رؤيتى للتنظيم بصيحة أحد رجال الثورة إنه تنظيم للاتصال ولإبلاغ القيادة بما يحدث فى القاعدة، وليس للقاعدة أن تتصور أنها صاحبة أمر ونهى فى أمور السياسة.. إنها مجرد أسلاك اتصال مثل أسلاك التليفون.. وقبل أن تتضح لى هذه الصورة وقعت فى كمين.. عندما قال لى أحمد فؤاد إنه بناء على طلب من عبدالناصر تقرر أن ادخل انتخابات نقابة الصحفيين لمنصب النقيب!

٦

عبد الناصر
يرشحنى
نقيبا
للصحفيين



"كان ترشيحي لانتخابات نقيب الصحفيين ضد رغبتي الشخصية، فطبيعتي انطوائية، ولم أفكر يوما فى أن أقوم بخدمة عامة اختلط فيها بالناس، وأصدقائي معدودون، يقل عن عدد أصابع يد واحدة ، ومعارفى قليلون، ولا أحضر أفراحا ولا أمشي فى جنازات، وليس من السهل اقتحامى، ومن يفلح يكتشف أنى مصاب بحساسية مفرطة مرهفة، ومن هنا كان دخولى تجربة انتخابات أشبه بدخولى فى كابوس."

ولقد تحملت التجربة بمشاعر مثالية شديدة الانضباط كعضو فى التنظيم الطليعى عليه أن يؤدى واجبه، وكنت أعجب لماذا وقع الاختيار على مثلى، وكان أحمد فؤاد ومعه أحمد حمروش يؤكدان لى أن مهمتى سوف تكون سهلة وان التنظيم سوف يتكفل بكل شىء، وما علىّ إلا أن أقوم بجولات فى دور الصحف وأعقد بعض الندوات، وقمت فعلا بزيارات للأهرام وأخبار اليوم ودار التحرير والهلال ووكالة أنباء الشرق الأوسط، والتقيت خلال شهر كامل عام ١٩٦٥ بالصحفيين كبارهم وصغارهم، المهتمين بالسياسة والمهتمين بكرة القدم، وقابلت رجال إعلام وخطاطين ومصححين، وسمعت بأسماء صحف لأول مرة، وتعرفت بوجوه جديدة.. واستمعت إلى الآراء التى تحتدم بين الصحفيين، وكان اهتمامى الأول بالأفكار النظرية المثالية التى كتبت عنها مطالبا بحرية الصحافة.

ولقد نـاقشت حرية الصحافـة ـ صدق أو لا تصدق ـــ فى أشد الأوقات حسـاسية وحرجا بـالنسبة لعبدالنـاصر.. وهى تلك الأيام التى أعقبت الانفصـال بين مصر وسـوريـا. فقـد أعقبتهـا مـوجـة اعتقالات للـرجعية القـديمة التى تبـادلت التهنئة فى انتظـار سقوط عبدالنـاصر .. فوجـه إليها ضرباتـه المتلاحقـة، وسقط فوق رأسى سيف الرقابـة، فأبلغنى إحسان عبدالقدوس ان لـديه تعليمات بأن يـراقب عملى كرئيس للتحـريـر فى صباح الخير، وحـدث ذلك عقب محادثة تليفـونية مع الدكتـور عبدالقـادر حاتم قلت له فيهـا: إننا يجب أن نعرف ـ كمصريين ـ كل شـىء عن أسباب الانفصال، وانه لا معنى لـلاعتراض على نشر أخبـار تصلنا مـن سوريـا، وفقـدت أعصابى هاتفا : إن والدتى مـوجودة فى سوريا مع شقيقتى، زوجة ضـابط مصرى هنـاك، فأنـا وغيرى من المصريين لابـد ان نعـرف الحقيقـة، وبعـد سـاعات كـان احسـان عبـدالقـدوس يبلغنى انى أصبحت تحت إشرافـه المباشر.. رئيس تحرير روزاليـوسف يشرف ويراقب زميله رئيس تحرير صباح الخير.

ولقـد ضـايقنـى الموقف فشرعت فى إعـداد حملـة عن حـريـة الصحافـة بدأت نشرهـا فى صباح الخير يـوم ١٩٦٢ واشترك معى فيها لـويس جريس مديـر تحرير صباح الخير فقدم مـادة خصبة وغزيرة عن حـرية الصحافة كما درسها فى أمريكـا، وجاء بالمراجع القانـونية والـدستوريـة، أما حجازى الـرسام فـاشترك برسـومه الكـاريكاتـورية، فـرسم حريـة الصحافـة قطار «رجعيـا» يصرخ: الحقونى حريـة الصحافة حتموتنى، ورسم رجلا لـه وجهان وآخر يسألـه «إيه رأيك» وينتظـر الإجابة من كـل وجه! ورسم مجمـوعة أطفال فى أسمال بـالية وصحفيا ينظر إليهـم فيتذكر انه على مـوعد لحضور عرض أزيـاء فى الهيلتون، وكتبت: ان حرية الصحـافة هى

أحد مظاهـر الحرية الأساسية فى المجتمع.. أعنى حـرية الرأى التى بغيرها لا يكـون المجتمع صالحا للنمـو والتقدم.. والحريـة لا قيمة لها إذا لم يستطع الإنســـان أن يعبر عـن أفكـاره وينشرهــا على الآخرين.

واستمرت حملـة حريـة الصحافـة ثلاثـة أسابيع، ولم يعترض عليهـا أحــد. كـان هـذا عـــام ١٩٦٢ فلما دعيت للترشيح كنقيب للصحفيين خيل إلىّ ان الاتجاه إلى رفع الـرقـابـة وإطـلاق حـريـة الصحـافـة يعـود ويفــرض نفســه، وان الكلمات التى كتبتهـا أن الصحـافة لم تستطع أن تـؤدى وظيفتهـا الأولى، من تقديم أخبـار صادقـة دقيقة واعية لا تكـذب، قد لاقت ترحيبـا وكانت السبب فى ترشيحى لأن أتقـدم لمنصب النقيب وان الرقـابة الداخليـة قد زالت منذ عام ١٩٦٤ وأننا مقبلون حقا على عهد جديد.

لكن المنـاخ الســـائد بين الصحفيين، كـان منــاخ شك وريبـة ومازالوا مع رســوم حجازى عن حرية الصحــافة، ومن بينها رسم شهير لأسد يقــول: مفيش أحسن من أيام الرومان كـان اللى يقول رأيـه يـرمــوه لـلأسـود تـأكلـه!! فـالهمس بين الجميع ان الأسـد عبدالنـاصر قادر على ان يلتهم من يعارضه، ومنــذ أن قدمت أوراق تـرشيحى فى الانتخـابات حـاصرتنى همسـات تلـومنى وتشكك فى جدوى ما أقدمت عليــه أو تبدى أسفها لأنى ورطت نفسى فى أمور كان لابـد أن أترفع عنها، وكـان من المستحيل أن أشرح لكل هامس ما أنا فيه، فالتنظيم السرى هو الذى اتخذ قراره السرى بترشيحى، وسمعت من يقول: ما جدوى معركـة انتخابية فى نقابة الصحفيين. انت تتسرع وتخطـو فى أرض غير صلبة وكل مـا سوف تفعلـه هو إثارة زوبعـة فى فنجان، ولن تقــدم ولن تؤخـر شيئا، ولعل الأفضل هو عدم إثارة الزوابع.

كان الحماس للكلام عن حرية الرأى عام ١٩٦٢ يفتر الآن بعد مرور ثلاث سنوات، وغيوم اليأس تزحف وسمعت أيضا من يشجعنى لأسباب نظرية أو فلسفية مثل ان المثقفين محتاجون إلى العمل لا الكلام ويكفى أن تجربة دخولك الانتخابات تفتح أبواب المناقشة ولو حول المهنة وأهدافها.

وهناك من قال : إن الصحافة فقدت دورها القيادى للرأى العام، وهناك من هاجمنى لأن الصحافة مجرد أداة فى يد الحكومة، وفى خدمة السلطة وليست لدى الصحافة أفكار ومجموع الصحفيين أقل من جمهور مباراة بين الزمالك والأهلى ولا أحد يهتم ـ الآن ـ بالصحافة أو السياسة، ولا أثر ولا أهمية للصحافة وحرية الرأى التى يثرثر بها المثقفون فى أحوال العمال والفلاحين أو حتى رجال المال، وطبيعى ان أسمع من يحذرنى من التدخل فى الصحافة، لماذا؟ لأنه إذا كان هناك من يقدم المعلومات والخدمة الصحفية الحقة فهو رجل واحد اسمه محمد حسنين هيكل رئيس تحرير جريدة الأهرام وما عداه لا أهمية له على الإطلاق، وخوض معركة انتخابات فى نقابة الصحفيين لن يؤدى إلى تغيير مانشيتات الصحف ولا يحزنون !

وانتابتنى حالة مثالية دون كيشوتية. فتصورت انى مبعوث قيادة التنظيم السرى الطليعى للخلاص من هذا الجو المعتم اليائس الذى يسود مجتمع الصحفيين، وكنت أردد أن أعظم وأخطر مطلب للصحافة اليوم.. هو ذلك المطلب المتواضع.. إصدار صحيفة أو مجلة جيدة يستفيد منها الناس، وأننا فى طريق الانطلاق ودورنا المتواضع العظيم هو ان نجعل صحافتنا تكف عن أن تكون عقبة فى طريق الانطلاق، وكنت أصدق ان هذا واقعنا.. الانطلاق الذى انتظرته وتحمست له وزاد من حماسى ان اثنين من كبار

الصحفيين النقابيين وهما أحمد قاسم جودة وحسين فهمى أعلنا تنازلهما عن الترشيح لمنصب النقيب لصالحى، ودعانى الأستاذ قاسم جودة إلى الغداء فى منزله ليؤكد لى وقوفه بجانبى، وفى نفس الوقت كنت أواجه حماسا ينتهى إلى الاشفاق علىّ فأسمع إنى أقف معك.. إلا أنى أقولها بصراحة.. فوزك فى الانتخابات هو أكبر خازوق لك.. لأنه لا فائدة من أى شىء. من النقابة ومن الصحافة، وينتهى الكلام بضحكة ساخرة.. وهل نضحك على بعض!.. ولكن عندما اقترب موعد الانتخابات هاجت الدنيا وانهالت على الاتهامات بالشيوعية، والمعركة ليست حول الصحافة، إنها معركة سحق الشيوعية.. ولو كان هناك اختيار فلابد من اختيار الرجعية وليس الشيوعية.

وحاولت أن أتابع مصدر هذه الاتهامات، وفوجئت بأن أحد أعضاء التنظيم يذهب كل ليلة ويسهر فى نقابة الصحفيين ويعلن ان الشيوعيين سوف ينتصرون فى المعركة، وانهم سوف يعلقون المشانق للصحفيين الرجعيين، وأفزعنى الموقف وفكرت طويلا ثم قررت أن أواجه الأمر بأسلوبى الخاص، وكان الأستاذ حافظ محمود هو المرشح لرئاسة النقابة فطرقت بابه وقابلنى بترحاب لا يخلو من دهشة، وقلت له :إنى لا أريد أن أتورط فى اتهامات بالرأسمالية أو الشيوعية، ولست راغبا فى أن أكون نقيبا، ولا أجد حماسا لخوض المعركة.. كل ما فى الأمر ان جمال عبد الناصر كلفنى بأن أرشح نفسى.

فإذا بالأستاذ حافظ محمود يقول لى فى هدوء :

— وهو الذى كلفنى أيضا بأن أرشح نفسى.

وسألنى:

— من قال لك أن ترشح نفسك ؟.

فارتبكت .. فلا أستطيع أن أبوح له بأسرار التنظيم الطليعى الذى يرأسه عبدالناصر. لكنه لم يتردد فى أن يقول بهدوء:

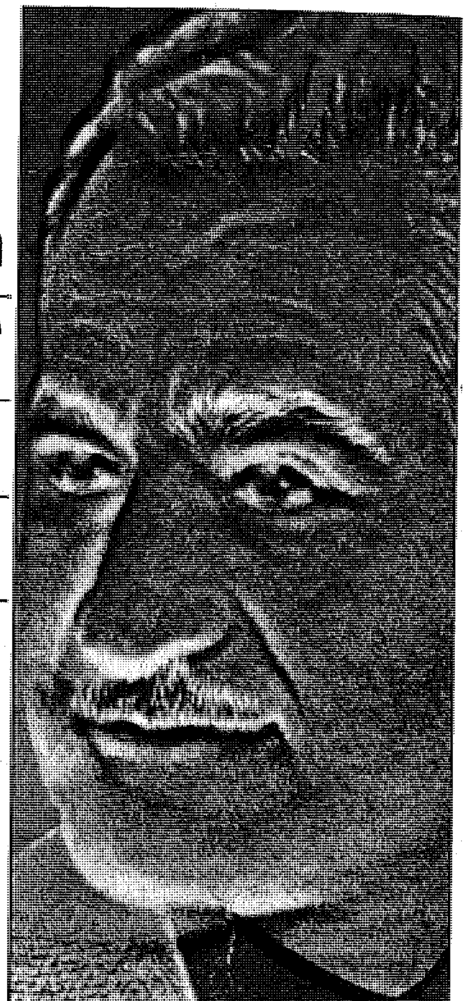
— زكريا محيى الدين هو الذى أبلغنى .

وفقدت حماسى تماما .. شعرت بأنى أقوم بتجربة علمية كفئران المعامل يراقبها صاحب التجربة.. وكان هذا هو بالفعل ما أراده عبدالناصر. فقد نجح الأستاذ حافظ محمود وهنأته فى نفس لحظة إعلان فوزه، وانتخبت عضوا فى مجلس إدارة النقابة، وسمعت فى مكتب عبدالناصر ان عملية الانتخابات كانت لدراسة قوة اليسار وقوة اليمين فى الصحافة المصرية، وجاء فى التقرير الذى راجعه عبدالناصر ان اليسار أقل لكنه أشد تماسكا، لأن الأصوات التى انتخبتنى لرئاسة النقابة هى نفس الأصوات بلازيادة أو نقصان التى انتخبتنى عضوا بمجلس النقابة.

وهكذا واجهت مرة أخرى استراتيجية الأمن ، ودعم السلطة، هو الذى يحرك قضايا الفكر وحرية الرأى، وهو الذى يحرك المناقشات والشائعات والاتهامات والحماس، وكل الجهود من أجل دعم السلطة وليس من أجل دعم الفكرة!

٧

هزيمة الثقافة وهزيمة الأمن



"" جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧ لتكشف عن أخطاء وعورات كثيرة فى النظام السياسى للبلاد، لعل أبرز هذه الأخطاء - من وجهة نظرى — أن حرية الفكر خضعت لاعتبارات أمن النظام، بينما كان المفروض أن حرية الفكر هى الدعامة الرئيسية لشرعية وقوة النظام.

ولاشك أن جمال عبد الناصر كان يدرك هذه الحقيقية لكنه يخشاها ولا يطمئن إليها بحيث يراهن عليها. ""

ووجدتنى مرة أخرى فى واحدة من هذه التجارب، عندما طلب على صبرى حضورى إلى مكتبه فى مصر الجديدة فى صيف عام ١٩٦٦.

وكنت فى ذلك الوقت رئيسا لمجلس إدارة وكالة أنباء الشرق الأوسط، وسألنى أن أكون رئيسا لمجلس إدارة دار التحرير ورئيسا لتحرير الجمهورية. وكانت دار التحرير قد تحولت إلى ساحة معركة سقط فيها عشرات المحررين مطرودين من العمل، وقبض رجال الشرطة العسكرية على مدير المطابع وأودعوه السجن الحربى، وكان الصديق الكريم مصطفى بهجت بدوى قد تولى الإشراف على إدارتها كمفوض وهو ضابط من رجال الثورة وأديب وشاعر.

وقد سيطر على الاضطرابات وحاصر الخسائر الرهيبة فى

محاولة لإنقاذ سمعة الصحيفة التى أصدرتها الثورة والتى صدر الترخيص لها باسم جمال عبدالناصر، وكان أول من تولى رئاستها أنور السادات، ومن بعده صلاح سالم لتكون لسان حال الثورة، تتحدث باسمها وتدافع عن مبادئها.

وكان من الصعب أن أتصور اختيارى لهذاالمنصب، وليست بينى وبين على صبرى صلة شخصية.. وكان المرحوم على حمدى الجمال - رئيس تحرير الأهرام فيما بعد - أقرب الصحفيين إليه.. وقد عرض عليه على صبرى أن يتولى رئاسة دار التحرير، لكنه رفض بإباء وشمم أن يتورط فى هذه المأساة الصحفية القائمة فى دار التحرير.. وكنت أقابل فى نقابة الصحفيين عشرات الصحفيين والصحفيات المفصولين، يطالبون بالعودة ويسألون عن وظائف فى وكالة أنباء الشرق الأوسط، التى فصلت عشرات آخرين قبل أن أتولى رئاستها. وكنت وكيلا للنقابة وأشعر على نحو ما بمسئوليتى نحو هؤلاء الزملاء وقد حاولت منذ عام أن أرشح نفسى نقيبا عنهم يشرف على مصالحهم.

سألت على صبرى.. إذا كانت هناك شروط لقبول المنصب، فأكد لى أنى حر وعلى مسئوليتى.. فقلت له بوضوح - وبيننا من كبار المسئولين الأحياء من يشهد بصحة ما قلته - أنى لاأريد أن أعمل فى صحيفة ليقال إنها تحت إشراف على صبرى.. ولأواجه صحيفة أخرى تحت إشراف زكريا محيى الدين، ثم هناك الأهرام تحت إشراف محمد حسنين هيكل.. وكنت اذكر ماحدث لى فى انتخابات النقابة، وحديثى مع حافظ محمود النقيب، وأنا أقول له إن الذى رشحنى عبدالناصر.. فإذا به يقول له وأن الذى رشحه عبدالناصر.. والذى أبلغه بذلك زكريا محيى الدين.

كنت لاأريد أن أتورط فى شد وجذب بين تيارات فى السلطة

بينها منافسات أو حزازات، وقد استطاع على صبرى أن يخلصنى من هذه الشكوك، عندما قال لى: إن موعد إعادة كتابة الميثاق الوطنى قد اقترب، فنحن الآن فى منتصف عام ١٩٦٦، والميثاق ينص على إعادة كتابته عام ١٩٧٠ مع تشكيل اللجنة المركزية التى تضم تحالف قوى الشعب العامل.. وأن الرئيس عبدالناصر يرى أن الوقت قد حان لفتح باب الحوار حول الميثاق ومراجعته.

ومن هنا كانت الحاجة إلى صحيفة الجمهورية لتكون المنبر الذى يدور فيه الحوار.. الفكرة هامة.. ولا أستطيع أن أرفض عرضا بأن أتولى صحيفة تكون منبرا لحوار مفتوح بلا قيود.

وأضاف على صبرى قائلا : إنه سوف يبدأ بنفسه ويكتب رأيه فيما يجب أن يكون عليه تشكيل اللجنة المركزية والمبادىء التى يتبناها الميثاق بعد مراجعته عام ١٩٧٠. وشرع بالفعل فى كتابة باب يومى، كان يمليه على حسنى الحديدى ويرسله إلى فلما نشرته فى الصفحة الأولى للجمهورية قامت الدنيا ولم تقعد.. وقال لى هيكل ماهذا الذى يكتبه «على» وقال إن زكريا محيى الدين يرى أن هذا الذى يكتبه على صبرى سوف يؤدى إلى حرب أهلية.. كان على صبرى يهاجم ماوصفه «بالقوة المضادة لحركة التطور الثورى».. وحددهم بجميع الأشخاص الذين تناولتهم القوانين الاشتراكية، والطبقة التى أصابها التطلع الطبقى.

وأعلن أن هناك حزبا رجعيا قائما بيننا فى مصر يبحث عن مصالحه الذاتية ويستغل صفات التسامح والرحمة التى يتميز بها الشعب المصرى.. وأن بين «القيادات» المحرومة من الفكر الصلب والرؤية الواضحة قبولا للأفكار المسمومة التى يبثها أعداء التطور الاشتراكى وهى قيادات ضعيفة وهى جناح فى الحزب الرجعى.

ولاشك أن على صبرى فى هجومه قد أزعج قيادات كثيرة ربما

كان من بينها القيادات التى يمثلها المشير عبدالحكيم عامر وحاشيته.. ورجال المخابرات ـ الذين تعرضوا لمحاكمات بعد هزيمة ١٩٦٧ ـ وقد أدرك كثيرون أن على صبرى يمثل اتجاها فى السلطة يريد إجراء عملية تغيير شامل فى أجهزة الحكم.

وكان لابد من مقاومة هذا الخطر الذى يمثله على صبرى وينذر به فى مقالاته اليومية.. إنه يدعو إلى عملية تطهير شاملة بين القيادات التى يتعامل معها عبدالناصر.

وتحدثت مع على صبرى فى الأمر، ونقلت له رأى هيكل كما تحدثت معه فى مناسبة أخرى عن تأثير انفصال سوريا عن الجمهورية العربية فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١، وتأثير هذا الحادث على المشير عبدالحكيم عامر وحالته النفسية.. ومحاولته للسيطرة على دار التحرير والتى انتهت بالقبض على محررين، وطرد محررين وتعرض الدار إلى الإفلاس.

وخطر لى أن أسأل على صبرى إذا كان من الممكن أن يكتب المشير عامر مذكراته عن انفصال سوريا، وقد كان حاكما فى دمشق.. عندما وقعت أحداث الانفصال.. فنظر إلى على صبرى نظرة من يستريب فى قواى العقلية لأن ذكر كلمة واحدة عن سوريا أمام المشير، أمر لاتحمد عقباه.

وجاء يوم عيد وكان عبدالناصر قد دعا كل رجاله إلى برج العرب.. ومن هناك اتصل بى على صبرى ليقول لى إن عبدالناصر فتح أمامهم جميعا ـ أنور السادات وحسين الشافعى وزكريا محيى الدين ـ موضوع المقالات التى يكتبها فى الجمهورية.

وقال لهم إنه بدلا من الشكوى أو الاعتراض، من الممكن أن يكتبوا أيضا رأيهم فيما يجب أن يكون عليه الأمر عام ١٩٧٠ ومستقبل مصر. وقال على صبرى: لن يكتبوا وكل مايريدونه لن

يوقف كتابة مقالاتى، وكان مبتهجا لأن عبد الناصر - فى رأيه - قد أحرجهم.

هنا كانت الصورة واضحة أمامى.. عبدالناصر يريد أكثر من رأى، ويريد حوارا.. لكن مخاوفه على أمن النظام كانت أكبر من ثقته فى ضرورة فتح الباب لحرية الرأى والرأى الآخر.

كانت استراتيجية الأمن أقوى عنده من استراتيجية الثقافة.. والأمن أولا ثم تأتى الثقافة وكان لايدرى أنه يراهن على فقدان الثقافة.. وأن الأجيال التى عاصرته فى الستينيات بما لها من ثقافة قوية، إنما نضجت وحصلت على معارفها من مدارس وجامعات وأحزاب تمرست بالفكر الليبرالى.

وكان حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين يخطب فى قاعة الاحتفالات الكبرى قبل الثورة وكان لويس عوض فى نفس الوقت يدعو إلى جماعة ثقافية للموسيقى الكلاسيكية، وكان محمد مندور يطرق آفاقا اشتراكية.. بينما عبدالرحمن بدوى يترجم كتب نيتشة وشنجلر ويكتب رسالته عن الزمان الوجودى.

ولقد نجحت الثورة لأن المثقفين فى مصر قد جعلوا من مجتمعهم بوتقة تنصهر فيها كل الأفكار بلا استثناء.. وكان الفكر العربى والتراث الإسلامى يتألق وهو يحتك بثقافات أجنبية يغالبها ويحاورها ويتصدى لها أحيانا ويتفق معها أحيانا.. وشباب الأربعينيات وسنوات مابعد الحرب العالمية الثانية والخمسينيات، هم الذين بلغوا الذروة الثقافية الأدبية.. بينما المناخ السياسى بعد الثورة والخطوات الرقابية التى اتخذها لم تساعد على نمو أجيال جديدية لم تجد فرصتها لتبادل الرأى.. ولم تتعرض لاختلاف المدارس الفكرية وتنوع الثقافات والسياسات الحزبية من وفد إخوان مسلمين ومصر فتاة وكتلة وسعديين وحزب وطنى وتنظيمات شيوعية..

لقد سار الشباب الجديد فى طريق هيئة التحرير.. ثم الاتحاد القومى وأخيرا هاهو ذا الاتحاد الاشتراكى وقياداته لاتريد الحوار.. وتعترض على فتح بابه، وعبدالناصر قلق مشغول بأمن النظام، وحساسيات المشير وحاشيته، ولا يرتاح فى نفس الوقت إلى الحرب الباردة بين القوتين العظميين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. ويخشى أن تشترى هاتان القوتان أصوات المثقفين. وتمول أحزابا عميلة لها. ولم يصل عبدالناصر إلى اقتناع كامل بأن المثقف المصرى أقوى من هذه التيارات كلها، وتصور أن النظام القوى بقيادته يصون الثقافة المصرية والعربية من التأثيرات الدخيلة والخيانة والعمالة، ولم يتصور قط أن قوة الفكر الحر كفيلة باكتشاف الأدوات الصحيحة لأمن النظام.. سواء فى المجال العسكرى أو الاقتصادى أو السياسى.

ولما حدث انهيار يونيو ١٩٦٧، ثبت أن خطأ جسيما قد ارتكبناه فى حق ثقافتنا وقدرتنا على التفكير والنقد والمصارحة.

ولقد ظهر التردد الشديد لدى عبدالناصر فى الاستمرار فى سياسة فتح باب الحوار من أجل إعادة كتابة الميثاق ..عندما طلب من على صبرى إيقاف كتابة مقالاته، وكان مستمرا فى الكتابة عن المسئولية التاريخية التى تنتظر تشكيل اللجنة المركزية، والقضايا التى تثيرها القواعد الشعبية والمسئولية الاجتماعية للجنة المركزية.. وكان آخر ماكتبه عن أهمية اللجنة المركزية تجاه التطور الثورى ومراحل التحول الاشتراكى يوم ١٨ مايو ١٩٦٧.. بينما مانشتات الصحف فى مصر والعالم ملتهبة بعد طلب عبدالناصر سحب قوات الطوارئ الدولية من خط الهدنة بين مصر وإسرائيل وإغلاق خليج العقبة.

واتصل بى على صبرى وأبلغنى أنه سيتوقف عن كتابة رأيه،

وسألنى إذا كان فى استطاعتى أن أجمع مقالاته فى كتاب تطبعه وتنشره دار التحرير فوافقت وأبلغنى أن المشير عامر تولى الإشراف على الاعلام المصرى.. التليفزيون والإذاعة والصحافة.. وهكذا توقف الحوار وقامت الحرب وكانت الهزيمة، وكان من أول نتائجها قرار أصدره عبدالناصر بعدم توزيع كتاب على صبرى وكانت صحيفة الجمهورية قد نشرت إعلانا عن صدوره قريبا.

ثم كان أن صدر قرار بفرض رقابة مشددة على الصحف نتيجة مقال نشرته الجمهورية يوم ١٩ يونيوبعنوان «القوات المسلحة والعلاج الجذرى» بقلم الأستاذ سعيد الخيال، جاء فيه: قواتنا فى موقف بالغ التعقيد بعد أن ضمن العدو لنفسه التفوق بل التفرد فى الجو منذ البداية.. والجيش نفسه لايمكن أن يلام على ماحدث بل على العكس فإننا ندرك موقفه البالغ الصعوبة والمتاعب والآلام المادية والمعنوية التى احتملها..

وحذار أن نقول ان المسألة مسألة أشخاص يخلفون أشخاصا.

وهاجم الأستاذ سعيد الخيال نظرية أن الجيش هو الشعب منظما والتى على أساسها تكررت عمليات الاستعانة برجال الجيش فى نواحى الحياة المدنية.

هذه النظرية أدت إلى تسرب الحياة المدنية بأساليبها وسلوكها وتطلعاتها إلى الجيش مما أضعف الحدود الفاصلة بين ماهو عسكرى وما هو مدنى. وصرف كثيرا من الاهتمام إلى مجالات أخرى، حتى أصبح القفز إلى هذه المجالات ينازع روح التخصص العسكرى.. ونذر الحياة للجيش.. والبطل المحارب الذى يستعذب التضحية ويحتضن الواجب العسكرى. والحرب هى أشق مايحتمله الإنسان، والتنعم آفة المحارب.. والامتيازات هى كالسوس توهن قوة الاحتمال وتنمى روح المحافظة بدلا من الروح الثورية.

وختم سعيد الخيال مقاله بأن النفوس مهيأة، وعزيمة الشعب حديد والظروف ملحة فى وجوب سرعة العلاج الجذرى مع الحكمة، وأمل الشعب معقود على قائده جمال عبدالناصر.

وصباح يوم صدور الجمهورية كان منير حافظ يتصل بى من مكتب سامى شرف، ليطمئن على قواى العقلية، إذ كيف أسمح بنشر مقال كهذا.. ألا تعرف أن مائة لمبة حمراء قد أضاءت فى مائة مكتب تدرس نتائج هذا المقال وتأثيره فى مواقع كثيرة.. كان يتحدث عن الأمن.. لأنه أهم بكثير من الوصول إلى فهم لما حدث، أو مناقشة الهزيمة، وإذا كان لابد من دراسة، فليس أمام الجماهير، وبعيدا عن العقول المصرية خارج نطاق الأمن وسيطرته.

وجاء العصر، ليتصل بى محمد حسنين هيكل من مكتب عبدالناصر ليقول لى نفس ماقاله منير حافظ ويضيف بلهجة ساخرة: إنى المسئول عن سيف الرقابة الذى هبط على الصحافة من جديد!

٨

ممنوع من الكتابة.. ممنوع من النشر



•• عادت الرقابة على الصحف فى محاولة يائسة لإيقاف أو صد تيار جارف من النقد والإدانة لأسباب الهزيمة الأليمة التى لحقت بالمصريين فى حرب يونيو ١٩٦٧. ••

وكان الصحفيون أول من واجه غضب الجماهير. فلم يعد يوجد قارىء يثق فى أخبارهم ومقالاتهم، وفقدت أجهزة الإعلام الأخرى: الإذاعة والتليفزيون ووكالة الأنباء - مصداقيتها بعد الصدمة العنيفة التى صعقت جماهير كانت منتشية بصوت أحمد سعيد يجلجل فى صوت العرب معلنا أن أقدام جنودنا تدق أرض تل أبيب، ومانشيتات الصحف تبرز باللون الأحمر فى صفحاتها الأولى سقوط عشرات من طائرات العدو محترقة بعد هجومها الفاشل على مطاراتنا المصرية.. فإذا بجنودنا قد انسحبوا غرب القنال وسقط فى الأسر من سقط وقتل وجرح آلاف، ووقف العدو على الشاطىء الشرقى لقناة السويس. أما طائراتنا فقد دمرتها هجمات خاطفة قامت بها الطائرات الإسرائيلية فى صباح يوم ٥ يونيو.

كانت مانشيتات الصحف كاذبة، ونشرات أخبار الإذاعة كاذبة، وأنصت المصريون لمحطات الإذاعة الأجنبية الـ«بى.بى.سى» و«صوت أمريكا» و«الإذاعة الإسرائيلية»، ولقد واجهت هذه المحنة بكل عنفها. عندما وجدت على مكتبى فى العاشرة من صباح يوم ٥ يونيو صور طائراتنا محترقة، وكان مصور جريدة الجمهورية يصحب المشير عبدالحكيم عامر وقائد القوات العراقية فى جولة

بالطائرة للتفتيش على بعض المواقع العسكرية، ثم اضطرت طائرة المشير إلى الهبوط على عجل، ولم يجد مصور الجمهورية سوى الطائرات المحترقة التى أصابتها الطائرات الإسرائيلية المهاجمة ليلتقط صورها، ولتكون شاهدا على حقيقة ما يحدث، بينما صوت العرب يسقط العشرات من طائرات العدو، ولا يذكر ما يشير ولو من بعيد إلى الحقيقة أو يحاول أن يمهد لها، وكنت غاضبا وتذكرت ماكتبته ونشرته فى روزاليوسف عام ١٩٦٢ فى روايتى «تلك الأيام» وفيها شخصية أستاذ التاريخ سالم عبيد والذى كان عضوا فى لجنة كتابة الميثاق الوطنى يراجع فى خواطره حديث أستاذه فى السوربون مسيو لافارج وهو يقول له: «إن بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة. إن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تدرس تفاصيل الأحداث، ثم تقف فى قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة لتختار التفاصيل المناسبة اللائقة وتسردها أمام الطلبة.. لاشىء أكثر من هذا ياعزيزى.. أو السجن.. نصف الحقيقة وتحيا.. كل الحقيقة والمقصلة ياعزيزى».

كانت صور الطائرات المحترقة تتحدانى فها هى ذى الحقيقة. كيف أواجهها، وأمسكت بالتليفون وطلبت مكتب سامى شرف، وجاء صوت منير حافظ لا يخفى قلقه، وعرف بأمر الصور فأمهلنى برهة، ثم طلب إرسالها إلى مكتب الرئاسة بمنشية البكرى فورا، لاحقيقة ولا نصف حقيقة ولا شىء على الإطلاق سوى الانتظار لشىء ما .

معجزة .. ربما ، وتذكرت مرة أخرى سالم عبيد وهو يتحدث عن مسئولياته نحو مشروع الميثاق الوطنى.. انتهت الأحلام والمعجزات.. والمستحيلات.. كل ما نشرته .. كل ما قلته لتلاميذى لم يخرج عن أن يكون أنصاف حقائق، ثم أرباع حقائق.. ثم

لاشيء.. مجرد رغي.. دردشة.. لا حقيقة على الإطلاق.

ويتحدث سالم عن مشروع الميثاق قائلا: لقد قرأت مشروع الميثاق.. عندك مثلا فقرة فى الباب الرابع تحت عنوان درس النكسة: وعمت الشباب المصرى موجة من السخط والغضب مع كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده.. ولقد ترددت فى مصر فى ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص.. وتجاوبت أصداء انفجارات القنابل.. وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها.. لم تكن هى الثورة وإنما كان ذلك هو التمهيد لها.. كانت تلك هى مرحلة الغضب التى تمهد لاحتمالات الثورة، إن الغضب مرحلة سلبية.

ويتساءل سالم عبيد ما معنى أن الغضب مرحلة سلبية.. مامعنى السخط.. مامعنى أصداء طلقات رصاص وأصداء انفجارات قنابل.. مامعنى اتجاهات وأساليب التنظيمات السرية، قف عند كل كلمة وحاول معرفتها فى الحياة.. فى اللحم والدم.. فى القلب والعقل، إلى أين تنتهى لك المعرفة.. سالم عبيد عندما حاول أن يعرف معنى هذه الكلمات.. اكتشف انه لا يعرف شيئا على الإطلاق.

وأفقت من خواطرى وصوت صلاح زكى يسألنى عن كلمة، فالإذاعة والتليفزيون فى حالة استنفار للمعركة، وتحدثت معه بالكلمات التى كتبتها فى الصفحة الأولى للجمهورية، كانت كلمات غريبة لا تتفق مع الطابع الحماسي الملتهب الذى يردده «صوت العرب»، كنت أتحدث عن المعركة الطويلة، عن المساحة الاستراتيجية للأمة العربية، عن امتدادنا الجغرافى فى السودان، ولم أتحدث عن اقترابنا أو اقتحامنا تل أبيب. كان الألم يعتصرنى، بعد ثلاثة أيام سقطت فى مكتبى لأكتشف فى مستشفى العجوزة أول إصابة لى بارتفاع ضغط الدم.

وانفجر كتاب كثيرون، فكانت مواجهتهم بالمنع من الكتابة، وانتقل يوسف ادريس إلى «الجمهورية» ومعه تعليمات بمنعه من الكتابة، وكان مريضا فساعدته على السفر إلى روسيا للعلاج، واحتفظ بخطاباته التى أرسلها إلىّ يعبر فيها عن تصميمه على استرداد عافيته وصحته النفسية، ويعدنى فيها بالكتابة عند عودته، أما عبدالرحمن الشرقاوى فقد واجه منع نشر روايته «الفلاح» ومسرحيتى «الحسين ثائرا والحسين شهيدا».. فواجهت المنع بقرار مضاد بنشر الرواية والمسرحيتين، وتحملت مسئولية عدم إطاعة الأوامر.

وجاءنى موسى صبرى مفصولا من «أخبار اليوم» تسبقه تعليمات بعدم استقباله، وكتب موسى فى كتابه عن وثائق ١٥ مايو كيف ذهب إلى محمد حسنين هيكل فقال له: إن انتقاله إلى «الجمهورية» لا يعنى أن الدار سوف ترحب به، لكنه فوجىء باستقبالى ولا داعى لأن أنقل ما كتبه موسى فى كتابه أو فى افتتاحيات نشرها فيما بعد عند عودته إلى صحيفة «الأخبار»، كان يعرف أنى تحديت التعليمات من أجل الحفاظ على كرامته.

ووصلنى خطاب رسمى من محسن أبو النور بصفته أمينا عاما للاتحاد الاشتراكى يبلغنى فيه بفصل حسين عبدالرازق من عضوية الاتحاد، وبالتالى فصله من عمله فى صحيفة «الجمهورية».

وأرسلت خطابا مضادا إلى محسن أبو النور أبلغه فيه أن فصل حسين عبدالرازق من الاتحاد الاشتراكى لا علاقة له بعمله فى مؤسسة صحفية ليس لديها ما يبرر اتخاذ قرار بفصله، ولاشك أن رجلا احتفظ له باحترام كبير وقف إلى جانبى فلم يتدخل فى قراراتى، رغم أنها خالفت بعض تعليماته، وهو محمد فائق وزير الإعلام فى ذلك الوقت، وكان ينقل إلىّ عدم ارتياحه لمجموعة الكتاب

الكبار، ولكنه تعامل معى على أنى المسئول عن تصرفاتى وأتحمل نتائجها.

غير أن الموقف إلى جانب كتاب وصحفيين تعترض الرقابة عليهم لم ينقذ سمعة الصحافة التى فقدت ثقة القراء، ولم تعد مصدر أخبارهم ومعلوماتهم السياسية، واكتفوا بمتابعة أخبار كرة القدم ومبارياتها، فكانت انتصارات الأهلى أو الزمالك هى التى ترفع التوزيع أو تخفضه وتعليقات نقاد الرياضة أكثر حرية وحيوية من التعليقات السياسية المملة التى تتناول «النكسة» وهى غير «النكسة» التى تحدث عنها الميثاق. لكن صبر الجماهير نفد بعد صدور أحكام الطيران التى تناولت أسباب الكارثة التى لحقت بالطائرات والمطارات فى أول يوم من أيام الحرب.

واندلعت المظاهرات فى الجامعات وانطلقت فى الشوارع، وسمع الصحفيون هتافات معادية أمام دور الصحف، وكانوا فى نفس الوقت لايستطيعون كتابة الأخبار الحقيقية عن المظاهرات، فالتعليمات تصور الأحداث كما لو كانت مؤامرة، ولا علاقة لها بغضب جماهيرى حقيقى، وكانت نقابة الصحفيين قد ناقشت أمر الرقابة وطلبت إلغاءها فى كل ماهو بعيد عن المعلومات العسكرية. وعقد مجلس النقابة اجتماعا برئاسة النقيب أحمد بهاء الدين، وأصدر بيانا كتبه بهاء ووقعه أعضاء المجلس يطالب بالاستجابة لمشاعر ورغبات الجماهير فى محاسبة المسئولين فى جميع مجالات العمل فى مؤسسات مصر وإصدار القوانين التى تكفل الحريات العامة والضمانات الخاصة بالأفراد.

وكان أحمد بهاء الدين لبقا وحاسما فى نفس الوقت كعادته، وهو يذكر أن هذا البيان يؤدى ما يطالب به عبدالناصر من توسيع قاعدة الديمقراطية ومحاسبة المسئولين الذين تسببوا فى الهزيمة.

ويروى جميل عارف فى كتابه الذى صدر أخيرا «أنا.. وبارونات الصحافة» القصة الكاملة لهذا البيان وكيف أن عبدالناصر غضب لصدور البيان واعتبره طعنة فى الظهر وذلك نقلا عن رواية لسامى الدروبى الأديب الكبير والسفير السورى الذى قال: إن عبدالناصر هو الذى حدثه فى هذا الأمر باعتباره صديقا لأحمد بهاء الدين.

ولم يحدث تغيير فى موقف الرقابة. لكن البيان الذى أصدره مجلس النقابة فى آخر فبراير ١٩٦٨ سبق بشهر واحد بيان ٣٠ مارس الذى أعلن فيه عبد الناصر عن بدء عهد جديد لتحرير الأرض وإزالة آثار العدوان وتوسيع قاعدة الديمقراطية وإجراء انتخابات جديدة للاتحاد الاشتراكى.

وكان من الطبيعى أن يسود الشعار المرفوع «لا يعلو صوت فوق صوت المعركة» لكن للأسف الشديد. لم تحدث محاولات جادة لتعميق الديمقراطية، أو إتاحة الفرصة لحوار جاد كذلك الذى حاولنا أن نبدأه قبل الحرب بمقالات على صبرى .

وكان هناك «بالجمهورية» قسم للأبحاث. فيه مجموعة من خيرة الشباب المثقف، كان يشترك معهم بالمناسبة مصطفى الفقى قبل حصوله على الدكتوراه. وكان من أبرز الكتاب فتحى عبدالفتاح وطاهر عبدالحكيم وحسين عبدالرازق ومحمد أبو حديد وجلال السيد والدكتور محمد أنيس وغيرهم كثيرون، لكن العيون كانت مركزة عليهم.

وذات يوم قال لى أنور السادات فى بيته بالهرم أن أحذر من هؤلاء الكتاب وخص بالذكر طاهر عبدالحكيم. وكنت أستمع إلى مثل هذه الملاحظات فلا أذكرها ولا أجعلها سببا لحرمان واحد منهم من نشر مقالاته. لكن الجو العام كان مختنقا لا يسمح بامتداد المخيلة لآفاق مابعد الحرب، على نحو ما يفعل المحاربون

عادة. إذ يكـون جزءا من همومهم فى الحرب، ما سوف يكـون عليه الحال بعدها.

وجـاء موعـد انتخـابات النقـابـة. وتقدم كـامل زهيرى لترشيح نفسه نقيبـا لأول مرة. وكـان علىّ بصفتى وكيـلا للنقابـة أن أكون رئيسا للجمعية العمـومية فى غياب النقيب وفى انتظـار انتخابه، وفى هذا الاجتماع طلب يوسف إدريس الكلمة وتحدث عن ضرورة إلغاء الرقابة على الصحف وتلاه صلاح جاهين.

ورغم كل المحـاذير والتعليمات لم أتـدخل لتعطيل طلب الكلمـة، واتخذ الحاضرون بالإجماع قرارا بإلغـاء الرقابة، وهـو قرار أخطر من بيان يصدر من مجلس إدارة النقـابة، لأنه يمثل مطلب الجمعية العمومية للنقابة، وفى تلك الليلة فاز كامل زهيرى برئاسة النقابة.

أمـا لجنة الـدعـوة والفكـر فى الاتحاد الاشتراكى، فقد أصـابها الـذعـر. وقال رئيسهـا فى اجتماع مع مجلس النقـابـة الجديـد. إن أجهزة التصنت كانت مبثـوثة فى القاعة التى انعقـدت فيها الجمعية العمـوميـة، وكـانـوا يستمعـون فى أكثـر من جهـة لما يحدث فى الاجتماع.. وكان مطلب إلغاء الرقابـة مؤامرة أو انقلاب بينما كانت التجـربـة تبشر بأن السماح بحـريـة التعبير عن الـرأى هى دعـوة لانطـلاق فى البنـاء والابـداع وليست دعوة للإنفجار والتدمير.

٩

حرية النشر والصراع على السلطة



❞ كان عبد الناصر يخوض أكثر من معركة ومن بينها معركته مع المرض وكانت الناس لا تعلم ما يجرى بين قيادات «الثورة» وقد طرح مرض عبد الناصر عليها ذلك السؤال الرهيب. من يخلف القائد؟ ولقد سمح لى موقعى فى دار التحرير أن أواجه بعض المواقف التى كشفت المناورات التى تدور فى الكواليس بين رجال عبد الناصر لدعم وجودهم فى السلطة وفى انتظار الوقت المناسب لتولى الخلافة. ❝

ومن الطبيعى أن تكون الرغبة فى تولى السلطة قائمة فى الرجال الذين قاموا بالثورة. ومنصب الرئاسة يحتاج إلى «من تأتيه الخلافة منقادة» وأذكر بهذه المناسبة حديثا جرى بينى وبين صحفى روسى أثناء زيارة قمت بها للاتحاد السوفيتى فى وقت لاحق، وحدثنى الصحفى عن تجربته ثم الانقلاب المضاد الذى انتهى إلى وصول الرئيس سوكارنو إلى الحكم، وقال لى الصحفى: إن الأزمة فى اندونيسيا بدأت منذ عرف رجال «سوكارنو» انه مصاب بالسرطان. فتحركت قيادات وقوى كثيرة تريد الانقضاض على منصب الرئيس المريض لأن هذه هى طباع البشر.

وأعود إلى عبدالناصر بعد أن ألقى بيان ٣٠ مارس، وأعلن عن انتخابات جديدة للاتحاد الاشتراكى، وقد أجريت الانتخابات بالفعل وتم تشكيل المؤتمر القومى، واللجنة التنفيذية العليا، وحدث

أن حصل على صبرى على أكبر نسبــة من الأصـوات، وكــان هـذا يؤهله لأن يـرأس اللجنة السياسية، وفـوجئت بالسادات يتصل بى ويطلب أن تقف الصحافـة إلى جانبـه، وكان يشكـو من أن الأهرام والأخبـار تتعمـدان إهمال أخباره. وسبق أن سـافـر إلى إيـران فلم تهتم الصحف برحلته. لولا أنى كلفت إبـراهيم نوار رئيس التحرير التنفيذى للجمهـورية بأن يصحبـه فى رحلته، وعـاد إبراهيم وكتب تحقيقات صحفية تحدث فيها عن براعة السادات فى اللغة الفارسية والأشعار الفارسيـة التى يرددها، وحكى عن جلساتـه مع السادات أثناء سفره وضيقه بإهمال الصحافة لأخباره.

وهـا هـو ذا الســادات يطلب من جـديد المعـاونـة، وذهب إليـه إبـراهيم نوار، فطلب منـه السادات أن تهتم الجمهـورية بـاجتماع اللجنة السيـاسية، وقال إنـه يريـد أن نستعد بمصور لأنـه سوف يبكـر فى الحضـور إلى قاعـة الاجتماع ويجلس فى مقعـد الـرئيس، وعندما يأتى الآخرون ــ ومن بينهم على صبرى ـ سيضطرون إلى الجلـوس على المائدة من حـوله، وبـذلك تصبح قضيـة اختيـار أو انتخاب رئيس للجلسة ثم رئيس للجنة السياسيـة محسومة بالأمر الواقع.

كان واضحا لى أن الســادات يريد السلطة، ويستعـد لها، ويرى انـه أكثر رجـال الثـورة أحقية بخـلافـة عبدالنـاصر. وكنت أعجب للذين يتهمون السادات بعدم الفهم، أو بالتهريج فى جلسات المشـير عبدالحكيم عامر ولايزون فيه ذلك الجانب الشديد الصرامة والدهاء فى الإعدادللسلطـة. وحرصــه على متابعـة النشر عنه. وبعـض كبار المسئولين كـان يقول عنه بالحرف الـواحد: « إن الذى يشغلـه هو طبق الملـوخية الـذى سوف يأكلـه عندمـا يعود إلى بيتـه»، ويفسر وجوده فى منصب «نائب الرئيس» بـأنه شخص ضعيف لا حول له

ولا قـوة ولـذلك اختـاره عبـدالناصر نـائبـا لـه ليطمئن إليـه، لكن الحقيقـة ان السادات كـان بالمرصــاد لأية بـادرة من أحد قيـادات الثورة يستريب فى انها تقوم بمناورة من أجل وراثة الخلافة.

وحـدث أثناء محـاكمـة رجال المخـابـرات فى المحكمة التى كـان يـرأسها حسين الشـافعى، أن نشر مراسل «الجمهـورية» ملخصـا لأقوال الشهـود جاء فيهـا ذكر اسم زكـريا محيى الـدين — وكان رئيسا للوزراء - وفوجئت بدعـوتى لمقابلة رئيس الوزراء فى مكتبه. وكان هـذا أول لقاء لى معـه.. قابلنــى متجهما يتساءل لماذا ذكـرنا اسمه ولم نذكر أسماء آخـرين. لماذا لم نذكر اسم على صبرى، لماذا التركيز عليه هو شخصيا.

وارتفع يطالبنى صـوته بفصل المحـرر الذى كتب هـذا الكلام، وقد اعتبرت هذا الطلب تهديدا غير مبـاشر لى شخصيا، وخاصة انه قد أضــاف ان مصلحة البلد إذا اقتضت فصل مليون مـوظف فهو مستعـد لذلك. وضرب بيـده على صـدره وقال: «أنـا السلطة» ومـا أجده فى مصلحـة البلد لن أتـردد فى تنفيذه. وكنت أعلم أن هـذا هو منطق زكريـا محيى الدين. وانـه عندمـا يكون فى السلطـة كرئيس للوزراء يطلب من عبدالناصر ان تكون لديه صلاحيات كاملة.

وكـانت مشكلتـــه مع عبـدالنـاصر هــى فى انـه لا يحصل على التفويض الكامل الـذى يرى بصدق انه الوسيلـة الحقيقية لإصلاح ماهو فاسد ومعوج فى البلاد.

وخرجت مــن مكتب رئيس الوزراء دون أن أعـد بفصل المحرر، واكتفيت بأن أحـاول تهدئة خواطـر زكريا محيـى الدين بمـراجعة مانشره عنه، حتى لا يشعر بأن «الجمهورية» تتحيز لإسم من بين أسماء قادة الثورة، ولقـد رفضت هذا التحيز كما سبق أن أوضـحت منـذ اللحظة الأولى التى عـرض فيهـا على صبرى أن أتولى رئاســة

تحرير «الجمهورية» إذ قلت له: إنى لا أقبل أن تكون الصحيفة لسان حال على صبرى أو زكريا محيى الدين، وانه قبل كلامى باسما، وقال لى فيما بعد أمين هويدى: انت الوحيد فى مصر الذى كان يستطيع أن يقول هذا الكلام لعلى صبرى فى ذلك الوقت..

ولم يمض يوم على مقابلتى لزكريا محيى الدين، حتى اتصل بى السادات وطلب حضورى إلى بيته، وبدأ جلسة طويلة امتدت لساعات بسؤالى: ماذا فعلت مع زكريا محيى الدين؟، ولم أسأله كيف عرف بالمقابلة، وكان لابد أن أروى له بالتفصيل كل ماحدث، وانصت باهتمام. ثم قال بصراحة تامة: إن «زكريا» يكرر منذ فترة هذا الأسلوب! وشرح لى الموقف على النحو التالى:

إن زكريا محيى الدين يعمل على دعم وجوده كصاحب سلطة مطلقة. ويبث هذا الشعور فى مجالات مختلفة وحديثة الذى يردد فيه «أنا السلطة» تكرر مع عصام الدين حسونة وزير العدل، ومع أكثر من عضو بمجلس الأمة رووا ماحدث لهم مع أنور السادات، فالمسألة أكبر من أن تكون مجرد احتجاج على ذكر اسمه فى قضية المخابرات.

كان السادات يرى الأمور من وجهة نظره بحذر وتأهب لمواجهة أخطار قادمة من جانب زكريا محيى الدين، وعندما خرجت من بيته كنت واثقا ان صراع السلطة الذى يجرى فى الكواليس أخطر بكثير مما قد يخطر ببال أحد، وتأكدت ظنونى بعد أيام.. فقد اتصل بى مسئول من الرئاسة وقال لى: إن الأمر فيما يتعلق بالسيد زكريا محيى الدين أصبح منتهيا لأنه سوف يترك منصبه كرئيس للوزراء بعد وقت قصير.

وهكذا عرفت بأن زكريا محيى الدين خارج من الوزارة قبل حوالى اسبوعين من اعلان استقالته، وعرفت فى نفس الوقت ان

اهتماما كبيرا كان موجها إلى تحركات زكريا محيى الدين، وخوفا ـ لا أدرى أسبابه الحقيقية ـ من أن يكسب زكريا محيى الدين مواقع تعترف بسلطته سواء فى الإعلام أو الصحافة أو فى مواقع أخرى، فتمهد له الطريق ليتقدم فى الوقت المناسب لخلافة عبدالناصر المريض.

وكنت أبحث عن وسيلة لظهور كلمة الناس التى تعبر عن إرادتهم، ليكون لها تأثيرها فى هذه التيارات الخفية فى كواليس السلطة، والتى أجهلها ولا أعرف منها إلا ما يتسرب إلى نتيجة موقعى الصحفى.

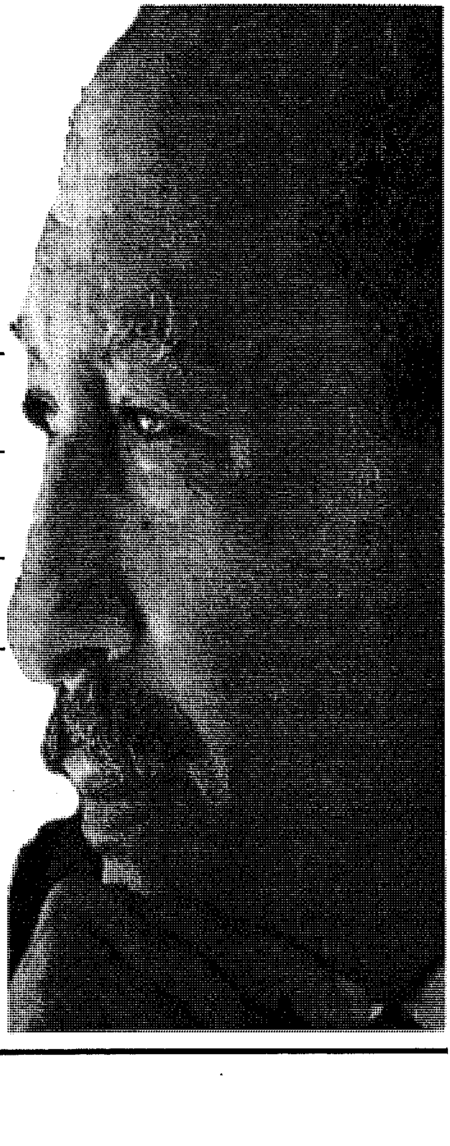
وكتبت مقالا عن أهمية تفاعل القيادات من خلال الاتحاد الاشتراكى مع الجماهير لتكون مؤثرة فى سياسة البلاد. وإذا بعلى صبرى يتصل بى ـ وقد وصلته بروفة من المقال دون علمى ـ وكان يريد منع نشره. فقاومت بإصرار فسمح بنشره وهو يحذرنى من مغبة ماكتبته. فلما جاء أول اجتماع للجنة المواطنين من أجل المعركة ودخل عبدالناصر قاعة الاجتماع اتجه بنظره إلى حيث أجلس وأشار بيده فى ضيق وقال: هذا الكلام الذى تكتبونه تعالوا انتم ونفذوه.

كان ضيق الصدر بالكلام الذى يراه نظريا وسط معمعة حرب الاستنزاف ومبادرة روجرز والصراعات الخفية على السلطة. ولقد اشتدت هذه الصراعات، عندما كانت لجنة المواطنين من أجل المعركة تجتمع برئاسة حافظ بدوى، فيعقد السادات اجتماع «الباب المفتوح» فى الاتحاد الاشتراكى. ويدور الهمس حول تصادم مواعيد اجتماع اللجنة مع اجتماع الباب المفتوح. وضرورة التنسيق بين الاجتماعين.

وحدث ان قابلت شعراوى جمعة فإذا بـه يقول لى: لقد قررنا أن نعتبرك واحـدا منـا. ولم أفهم مـا الذى يقصــده، فإذا كـان الأمـر خاصـا بعضويتى فى التنظيم الطليعى فهـذا قديم، فما هـو الجديد لأصبح واحـدا منهم. ثم جاء مسـاء يـوم من خريف عـام ١٩٧٠ وجاء النبأ الصاعق أن مات عبد الناصر.

١٠

الرقابة على طريقة السادات



❝ فرض موت الزعيم على الأمة موقفا مثاليا ، فالجميع يتشبثون أمام الموت بذكرى عبدالناصر، مآثره وإنجازاته تحيط بها وترعاها الآمال الكبار التى أودعها الزعيم القلوب والعقول. ❞

كان التفاف الشعب واحتشاده فى جنازة عبدالناصر موقفا مثاليا ونادرا لاحتشاد الشعب حول آمال باقية يريد أن يحافظ عليها، ويضمن لها الاستمرار، فهى التركة وهى الوصية، ومراجعة أعمال البشر تكون بالكشف عن المزايا والصفات التى ارتفعوا بها، ولاتكون أبدا بالكشف عن النواقص للوقوف عندها والتركيز عليها، لأننا جميعا كبشر لنا أخطاء، ومقياس النجاح بالذروة التى يصل إليها العمل الناجح، وذروة عبدالناصر كانت فى الحلم العربى الذى أيقظ به الجماهير. وذورة عبدالناصر كانت فى إرادة التحرير التى أصبحت نموذجا لدول وشعوب انتفضت وثارت وتحررت بها.

ولقد كان شوبنهور الفيلسوف الألمانى يسخر من نقاد الأدب الذين يفتشون عن النواقص والعيوب، ويتساءل إذا كان يوجد عمل أدبى واحد بلا عيوب، فالمهم عنده هو الكشف عن نواحى العبقرية والجمال التى وصل إليها العمل، وهى التى تحدد مستواه، وهذا أيضا هو مايصلح لمراجعة حساباتنا مع زعيم مات، لأنه يبقى بإنجازاته ونجاحاته، أما النواقص والأخطاء فتتحول إلى دروس ـ لا لتقييم الزعيم ـ لكن لمواجهة الحاضر الذى نعيش فيه، لذلك كانت الأيام التى أعقبت تشييع جثمان عبدالناصر، أياما

مثالية، والمناخ السياسى السائد هو مناخ المثاليات، بمعنى الشعور السائد بأن واجبنا المقدس هو أن نواصل السير فى طريق عبدالناصر الذى تحول إلى رمز، بل ربما تحول إلى أسطورة.

وفى هذا المناخ كان أنور السادات يقسم أمام مجلس الأمة ليتولى الرئاسة، ثم ينحنى أمام تمثال عبدالناصر فى مشهد تمثيلى من مشاهد مسرحية تاريخية، ولقد استراب فيه كثيرون لما فيه من مبالغة ومظهرية، لكن بقى المعنى الكبير، إن الرئيس الجديد سوف يواصل السير فى طريق الزعيم الخالد. وكان لهذا معناه المباشر بالنسبة لقضية الرقابة وحرية الصحافة، فمادام السادات ينحنى للتمثال، فهو من باب أولى سوف ينحنى للاتحاد الاشتراكى، وتنظيمه الطليعى، وهذا يعنى ان صوت التنظيم سوف يرتفع وسوف يكتب أعضاؤه آراءهم بحرية، وسوف يدور حوار سياسى مفتوح، وخاصة أن السادات كان يعقد جلسات باسم «الباب المفتوح» تدعو المواطنين للتعبير عن آرائهم وأفكارهم بحرية كاملة.

ولقد استطاع السادات أن يؤكد حرصه على سلامة الإجراءات الدستورية التى تؤدى إلى توليه السلطة الشرعية، واعتمد على التنظيم الطليعى ليقود مظاهرات التأييد له، فاتجهت الوفود التى تمثل الاتحاد الاشتراكى والنقابات العمالية والفلاحين والنقابات المهنية إلى قصر الطاهرة تحمل أعلامها، ويستقبلها السادات ويرحب بها كما ترحب به، وعندما ذهب وفد نقابة الصحفيين إلى قصر الطاهرة، تقدم أحد رجال حاشية السادات، وطلب من كامل زهيرى النقيب، وطلب منى أن نجلس بجوار السادات عندما يدخل القاعة على نفس الأريكة المعدة ليجلس عليها، كان قد أعد مسبقا الصورة التى يراه بها الناس سواء فى مشاهد التليفزيون الاخبارية أو فى صور الصحف والمجلات، كان حريصا على أن يراه الناس

والحشـود تحيط بـه، ولا يجلس وحده، بل يجلس مـن حولـه على يمينه ويساره أبناء الشعب الذين جاءوا يؤيدونه ويبايعونه.

وشعـر أعضاء التنظيم ان السـادات رجل ديمقـراطى، وتفتحت شهيـة كثيرين للعمل السياســى من خلال الاتحادالاشتراكى الـذى بدا فى أيامـه الأولى وكأنه يسيطر على الشارع وله كلمتـه النافذة فى تـولى السـادات الحكم، وكـان أول مـايشغل الكثيرين من أعضـاء التنظيم هـو احتكار الأهـرام ومحمـد حسنين هيكل للرأى والمقـال السياســى فضلا عن انفـراده بأخبار عبـدالناصر، لذلـك كان أول امتحان لحريـة الصحافـة، هو فى معـارضة مـوقف هيكل المعلن فى الأهـرام، عن ضرورة تحييـد أمريكـا فى الصراع العـربى الإسرائيلى، والمخاوف التى يثيرهـا حول نشـوب حرب تحاول فيها عبـور قناة السـويس التى كـانت من وجهـة نظـره التى شرحهـا فى مقـالاتـه بالأهـرام، مانعا مـائيا من شبه المستحيل عبـوره، وتصدت لهيكل ولأفكـاره والموضوعـات المطروحـة فى الأهـرام مجموعـة كبيرة من رجـال التنظيم الطليعى طلبوا منى نشر مقـالاتهم فى الجمهوريـة.. وكـان فى مقـــدمتهم الـــدكتـور لبيب شقير رئيس مجلـس الأمـة، والـدكتـور فـوزى منصـور، والـدكتـــور إبـراهيم سعـد الـدين، وعبدالهادى ناصف، وصبرى مبدى.

وأحـــدثت مقـالاتهم رواجـا سيـاسيـا، ورواجـا فى تـــوزيع «الجمهـورية»، وظهـرت على السطح التيـارات المتباينـة فى التنظيم الطليعى، ولم يتـدخل رقيب يفـرض مـوقفـا محددا، أو يطلب منع نشر مقال، وبـدا للقراء أن الهجـوم على محمد حسنين هيكل كـاتب عبدالناصر الأول أمر مثير للدهشة، ولـه دلالته على أن مناخا جديدا يسـود البـــلاد، وكـان أعضـاء التنظيم يفسرون هـــذا المنـاخ بأن عبدالنـاصر الزعيم قـد مات، وأصبح من المنطقى أن يتـولى التنظيم

التوجيه السياسى من خلال قنوات الاتحاد الاشتراكى واللجنة المركزية، وقد انتهى العهد الذى كانت فيه الجماهير تعتمد على الزعيم، وتنتظر منه أن يقدم لها القرار ويوجهها إلى الأهداف، الآن لا يوجد هذا الزعيم، وعلى التنظيم السياسى أن يتولى بنفسه المهام المطلوبة للحكم، وكان الحديث عن السادات ينتهى إلى أنه لن يتدخل، لأن مؤسسة الاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى أقوى منه وهى التى جاءت به إلى الحكم.

وكانت عيون كثيرة ترصد الموقف السياسى من خلال مايحدث فى الصحافة، ومقالات «الجمهورية» بالذات التى هاجمت آراء هيكل السياسية.

وأذكر أن دعانى السفير البريطانى إلى غداء فى السفارة مع وفد من أعضاء مجلس العموم فى زيارة للقاهرة.. وأثناء الغداء انهالت علىّ الأسئلة حول ما تعنيه المقالات التى تهاجم هيكل، وهل نستطيع أن نحارب إسرائيل، كان واضحا انهم مشغولون بتقييم الموقف، وكان صديقى ديزموند ستيوارت الكاتب والروائى يسألنى نفس السؤال، هل يحارب السادات أم انه لن يحارب، وكان يقول: إن الشائع بين المصريين الذين يقابلهم ان السادات لن يخوض الحرب، ثم يسألنى عن رأيى وقد عرفته شخصيا، فأقول له: إنى لاأتصور ان السادات ضعيف كما يتوهم كثيرون، وها هو السؤال يتردد بإلحاح من أعضاء مجلس العموم، وفجأة سألنى أحدهم:

هل صحيفتك تأثرت بموت عبدالناصر؟!

كان سؤالا ماكرا..

— وأجبت على الفور:

— تأثرت بكل تأكيد.

فقال:

— أعرف أنها جريدة عبدالناصر.. هل انخفض توزيعها؟

أجبت :

— بالعكس .. زاد التوزيع زيادة كبيرة.

وتحدثت عن رؤيتي للموقف ومشاعر الناس، إنها استلمت الزمام، وأصبحت تعتمد على نفسها وتفكر لنفسها، ولم تعد تعتمد على الزعيم فقد مات.

واستمعوا إلى ما قلته بين دهشة وعدم تصديق وإحساس بسذاجتى أدركته عندما سألنى الرجل متخابثا:

— معنى هذا انك سعيد بموت عبدالناصر.

فأجبت فى عناد:

— سعيد لأننا نشعر ونحن نعمل بحرية كاملة انه مازال موجودا بيننا.

وتحدثت عن رغبة عبدالناصر فى فتح حوار ديمقراطى لإعادة صياغة الميثاق الوطنى، ومقالات على صبرى باقتراحاته حول إعادة تشكيل اللجنة المركزية.

كان المناخ المثالى المتفائل هو رد الفعل لموت عبدالناصر.. مات الزعيم تحيا الجمهورية العربية المتحدة.. وتشجبت أمانة الدعوة والفكر بالاتحاد الاشتراكى، فتحركت لتمارس دورها، فكان اجتماع لرؤساء مجالس إدارات الصحف دعا إليه ضياء الدين داود، ووصلت متأخرا فوجدت هيكل يجلس بالقرب من الباب عند طرف المائدة الطويلة التى يجلس فى طرفها الآخر ضياء الدين داود، وجلست بجوار هيكل، وهمس وملامح وجهه تفيض بالسخرية: هل صحيح أن ميزانية الإعلانات تصل إلى خمسة وعشرين مليون جنيه، ماهو الرقم عندك فى الإعلانات المصرية، قلت

له: «مليون ونصف المليون»، فقال بضيق: إنهم يرددون كلاما غير صحيح، ويذكرون أرقاما لا صلة لها بالواقع.

وفى اجتماع آخر، قال لى وهو خارج كلمات قاسية عن ذلك الذى يحدث فى هذه الاجتماعات، كان واضحا انه يعترض على ما يقال ويرى انه كلام لا صلة له بالصحافة أو الإعلام أو السياسة، ونقل لى الإحساس بأن الصراع قائم ويوشك أن يكشر عن أنيابه، لكنه لم يصل بعد إلى المكاشفة التى تجعل هيكل يقاطع هذه الاجتماعات، وكان حضوره ومشاركته فى اجتماعات الاتحاد الاشتراكى تعنى ان الظروف قد تغيرت، فلم تعد القرارات تصدر من الرئاسة ويعرف بها هيكل قبل غيره، بل أصبحت هناك مناقشات فى اجتماعات الاتحاد الاشتراكى. والسادات لا يتدخل ليفرض رأيا.

وفى نهاية ابريل ١٩٧١ تقرر أن يسافر وفد من الاتحاد الاشتراكى إلى الاتحاد السوفيتى ليجرى لقاءات سياسية فى موسكو، وكنت عضوا فى الوفد، وجاءنى موسى صبرى يزورنى، وكان السادات قد أعاده إلى «أخبار اليوم»، وسألنى إذا كنت مسافرا إلى موسكو، فأجبت نعم.. فقال لى بصوت عاطفى: ـ أرجوك ـ قبل أن تسافر أطلب مقابلة السادات..

سألته : لماذا ؟!

قال:

ــ الرجل وحده .. يحتاج إلى أن تكون معه.

كانت دعوة لأن أنحاز إلى معركة، لا أرى أبعادها، ولاصلة لها بمبادىء عبدالناصر، وقد تورطنى فى صراعات بين أشخاص، وليس بين مبادىء، وكان التورط مع الشخص قد انتهى فى يقينى بموت الزعيم، ولا معنى لأن تتحول تجارب الثورة إلى تجارب ولاء للأشخاص، وهكذا لم أذهب إلى السادات، ولكنه كان يريد منى

شيئـا.. فقبل سفـرى بيـوم اتصل بى سـامى شرف وقـال لى: ان السـادات يطلب منى إيقاف نشر مقـالات أعضاء التنظيم، ومقـالات لبيب شقير وعبـدالهادى نـاصف، وصبرى مبـدى، ولا أنشر شيئـا يكتبه على صبرى.

فجأة وبـلا مقدمـات ظهـرت الـرقابـة صـارمة حـاسمـة، مع تحذيرات لا لبس فيها من سـامى شرف ألا أخبر أحدا بأن الرئيس طلب منع النشر، سألتـه، كيف، وأنا مسـافـر؟ وهكذا أبلغ ممـدوح رضا مـدير تحريـر العدد الاسبوعى «للجمهـورية»، وسـافرت مع وفد يضم الكُتاب المغضوب عليهم من السادات.

وفى ليلـة السفر اجتمعنـا فى فندق بـالقـاهرة، لنبحث تفـاصيل السفـر فى الصباح، وكـان ضياء الـدين داود يتحدث عنـدما تقـدم الجرسون يحمل صينية القهوة، فتوقف عن الكلام، وما كاد الرجل يبتعد حتى همس.

— كل هؤلاء من المخابرات.. وكل كلمة تقال أمامهم ينقلونها.

وانتقلنا إلى مـائدة عشاء، وجلس إلى جـوارى مستشار صحفى بالسفارةالسوفيتية.. وسألنى هامسا:

— ماهو موقف على صبرى؟!..

قلت له فى دهشة:

— ماذا تعنى ؟!

فلزم الصمت ولم يكمل ..

١١

حكاية إقالتى من رئاسة التحرير ومنعى من الكتابة



"وصل وفد الاتحاد الاشتراكي إلى موسكو وهي تستعد لاحتفالات عيد العمال في أول مايو ١٩٧١، وكنت قد تركت القاهرة والجو شديد الحرارة، وفوجئت عند هبوطي من الطائرة في موسكو بدرجة الحرارة ثلاث تحت الصفر. وساعدني عبدالملك خليل مراسل «الأهرام» في موسكو على شراء معطف في الحال لينقذني من هلاك محقق من البرد القارس."

ومنذ البداية كان واضحا أن البرودة السياسية أشد من برودة الجو، ولن تسعف المعاطف في التغلب عليها، وكان السفير المصري مراد غالب يعقد المآدب واللقاءات، لكن المسئولين الكبار مشغولون باحتفالات أول مايو أو بأمور أخرى.

ووقفنا على الرصيف في الميدان الأحمر بجوار المنصة الرئيسية فوق قبر لينين، نشاهد استعراض الجيش الأحمر، وفوق المنصة يقف بريجنيف والماريشال زوجوف الذي استولى على برلين في الحرب العالمية الثانية. وطال الوقوف والبرد القارس لا يرحم فأشفقوا عليّ وعادوا بي إلى حجرتي في فندق «راسيا» الذي يطل على الميدان.

وكنت أتصور اني أستطيع مشاهدة العرض العسكري من نافذة حجرتي. لكني وجدت رجلين داخل الحجرة يجلسان على مقعدين ويحرسان النافذة. صامتين جامدين، وجلست على السرير

فى انتظار الفرج. فالحراسة مشددة على كل موقع يطل على منصة العرض على امتداد عدة كيلو مترات، حتى لا تتكرر تجربة اغتيال الرئيس الأمريكى كيندى ببندقية بعيدة المدى .

كانت المجاملات كثيرة والأحاديث عادية، لكن بين وقت وآخر أسمع سؤالا يكشف للحظة خاطفة التوتر الذى تغلفه المجاملات. السادات يتحدث عن الإرهاب الفكرى بين عمال حلوان. ما الذى يقصده بالإرهاب الفكرى؟.. هل حضرت اجتماع اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى الذى عارض مشروع السادات لإقامة وحدة مع ليبيا. ما الذى يعنيه هجوم صحيفة «الجمهورية» على مقالات هيكل فى «الأهرام»؟.

وجاء صباح يوم وكنت على موعد مع هيئة التحرير بصحيفة البرافدا، وكان الحديث حول وسائل التعاون فى الطباعة والورق وتبادل الأخبار. كلام روتينى لا يتناول السياسة، حتى انتهى الاجتماع وأثناء هبوطى الدرج الرخامى الكبير فى طريقى إلى الخروج، رأيت رئيس قسم الشرق الأوسط يقفز الدرج ليصل إلى وفى يده برقية.. «صدر قرار بعزل على صبرى من «الاتحاد الاشتراكى» وأسئلة: هل تعرف شيئا عن هذا الموضوع، ما الذى يحدث؟ أجبت: لاأدرى. وانسحب الرجل وهو ينظر إلى فى ارتياب. كيف لا أدرى؟. وزادت المجاملات فى رحلات إلى طشقند وجورجيا ومآدب وزيارة للأكاديمية العسكرية «فرونز» وأحاديث عادية، إلى أن حان موعد السفر إلى القاهرة.

وجاء مراد غالب يقول إننا مدعوون إلى لقاء أحد أعضاء المكتب السياسى فى الحزب الشيوعى السوفيتى اسمه «ايلونوفسكى» رجل بدين له عينان حالمتان فى وجه مستدير صوته هادىء يتحدث ببطء عن كفاح الشعب السوفيتى والعشرين مليونا الذين

ماتـوا فى الحرب العالمية الثـانية. والكفاح المتـواصل عاما بعـد عام وإرادة الصمـود وعدم التخـاذل رغم المصاعب ورغم القحط الـذى استمـر سنــوات فى محصــول القمـح، ومع ذلك لم يتردد الشعب السوفيتى فى إرسال شحنات القمح التى كـان فى أشد الحاجة إليها تلبية لطلب عبدالناصر.

ومضى الـرجل بنفـس الصـوت الهادئ ودون تغيير فى إيقـاع كلماتـه يقول لنـا ببسـاطة: إن الاتحاد السـوفيتى لن يستطيع أن يقدم لمصر السلاح ولن يستطيع أن يواصل إرسال القمح إلى مصر. وإن علينـا أن نعتمد عى أنفسنـا. أن نكافح وأن نصمـد، ثم نبحث الأمر مع الولايات المتحدة!!

كانـت الكلمات أشد برودة مـن العاصفـة الثلجية القادمـة من سيبريا. كل شـئ يتغير وكل شئ لم يتضح بعد. الســادات الذى حـدثنى كثيرا عن الديمقـراطية يغضب لمعـارضة اللجنـة المركزيـة لمشروع الوحدة. ويتحدث عن الإرهــاب الفكرى وسط عمال حلوان. مما يعـود بذاكـرتى إلى أيام «صـاو صاو» يقـود العمال فى مارس ١٩٥٤ لتموت تجربة الديمقراطية فى المهد.

الكتاب ممنوع من الكتـابة. والتنظيم الطليعى لا يجتمع ولا أحد يتولى مسئـولية جمع أعضــاء التنظيم لمناقشـة ما يحدث. والهمس يـدور،فغيـاب اللقـاء التنظيمى تـرك المجال للمنـاورات الفـرديـة، وفقدان الثقـة، وكان لابد أن تمضى أيـام بعد يوم ١٥ مايـو «ثورة التصحيح» لأرى صـــورة انعـدام الثقــة والحيرة والبلبلــة داخل التنظيم، كما قـــرأتها فى نص تسجيل لمكـالمة تليفــونيـة نشرهـــا «الأهرام» بعـد إلقاء القبض على مـايسمى بمـراكز القوى. وكــانت المكـالمة بين على صبرى ومحمد فـائق وزيـر الإعلام، وكـان الأول يشكو من تجاهل الصحافة لقضية الـوحدة مع ليبيا والورطة التى

يريـد السادات أن يدفع مصر إليهـا. وقال محمد فـائق ـ كما نشر «الأهـرام» ـــ انه سـوف يتصل بى لأكتب فى الموضـوع، فـرد على صبرى: إنى آخر من يعلم بما يحدث.

وعجبت لهذا الأسلوب فى التعامل مع الكتابـة والكتاب، فالقضية بهذا المفهـوم ليست فى الأفكار ولا فى المنـاقشـة والحوار، بل فى أن تعتمد على الكـاتب الذى «يعلم» بـالعلاقات الشخصيـة، ومَن ضد مَن، ومَن مع مَن، إنـه الوجـه الآخـر للسادات الـذى طلب منع على صبرى من الكتابـة دون أن يقال لـه أو لأى أحد آخـر إن السادات هو الذى أمر بمنع النشر!

لكن هذه الـرؤية، كانت غير واضحـة ، وأنا مازلت فى مـوسكو، كـان الأمر الـواضح، أن الصراع يشتد بين الســادات وعلى صبرى، وان السادات الـذى أسرع إلى مقعد الـرئاسة فى اللجنـة السياسيـة ليسبق على صبرى الذى حصل على أكبر الأصـوات، يعاود الظهور بينما السادات يجلس على مقعـد رئيس الجمهوريـة. وسيكون على طـالبى المنـاصب والنفـوذ الاختيـار بين اسم الســادات واسم على صبرى.

وكان الراجح لدى الســوفيت ولدى أى إنسان يرقب الموقف، ان الســادات سـوف يكسب هذه المعـركـة الصغيرة، أو التى وصفهـا هيكل فيما بعــد، قـائلا: إن الســـادات كـــان يستطيع أن «يهشم بعصاته الصغيرة». أو كما كنت أقول لنفسى وأنـا أقرأ ما قاله على صبرى إنى آخر من يعلم.. إنى فى حقيقـة الأمر كنت أول من يعلم، وكنت أراه بوضوح صراعا على منـاصب ونفوذ ولا أرى فيه صراعا حقيقيا تقتنع به الجماهير وتؤيده.

كـان الفراغ الفكـرى قد اكتمل والاختيـار بين فلان وفـلان، ولا أرى أملا ولا أرى صدقـا فى هذا أو ذاك، وكان الذى يـدهشنى حقا

أن رجـالا أحترمهم وأثق فى قدراتهم وكفـاءتهم، مثل أمين هويـدى ومحمـد فائق جـرفتهم الأحـداث، ولم تتح لى فرصـة حتى الآن أن أعرف ما كان فى أعماقهم، وإن شعرت أن طباعهم أقرب إلى طباعى فى العزوف عن المظاهر واستمالة الجماهير بـالوسائل الديماجوجية وعلى أيـة حـال انقطعت الصلـة بينهم وبين الجماهير ولم تتـأثـر بعـزلهم، أمـا غيرهم ممن حاولـوا الأسـاليب الـديماجوجيـة فقـد اكتسحهم السادات بسهولة ويسر فقد كان أبرع منهم.

وكـان لابـد أن يطبق السادات استراتيجيـة الأمن فـوق الـرأى، ولقد أعـد لذلك من قبل يوم ١٥ مـايو. وكنت شاهـدا على ذلك فقد وصلت الطائرة إلى القاهـرة تحملنا من موسكو ظهر يـوم ١٣ مايو ١٩٧١ وإذا بـاحتفـال كبير يقيمـه القسم الـريـاضـى لجريـدة الجمهوريـة فى نفس اليوم وليس لـدىّ أدنى فكرة عنـه. وذهبت إلى الاحتفال المقـام فى قاعة كبيرة بجـوار مكتبى. وحضر جميع رؤساء الأنـدية الـرياضيـة. وكل من له صلـة بعالم الـرياضـة، وقد أعـد ناصف سليم بـرقيات تأييد إلى الرئيس الســادات باسم الحضور، فيما يعنى أن صراعا يدور فى مصر. وهناك مـن يؤيد ومن يعارض. وصحيفة «الجمهـورية» تـؤيد وجميع رؤسـاء الأنديـة الريـاضية يؤيدون ويبايعون.

وفى صباح اليوم التالى ذهبت إلى مبنـى التليفزيون لأزور محمد فـائق، وقابلت فى مكتب منير حـافظ، الـذى أصبح وكيلا للـوزارة، الدكتور حسن الـزيات وكان مندوبـا لمصر فى الأمم المتحدة، قال لى انه يسافر غدا إلى نيويورك.

وسألنى : مـاذا فعلتم فى موسكـو؟. وما كـاد يسمع أن الاتحاد السـوفيتى لن يمدنـا بالسـلاح والقمح حتى قال بلهجـة حاسمـة لاتخلو من أسى. وهو واقف معى وسط الحجرة:

— لو صح هذا .. فالبلد سوف يحكمها المشايخ!!

وأسجل هذه الكلمة على مسئوليتى. ولها دلالتها. وإن كنت لاأعرف مدى علمه بخطة السادات التى طبقها بعد ذلك. عندما استخدم الدين فى السياسة لضرب كل ما له علاقة بما وصفه بمراكز القوى أول الأمر، ثم بكل ماله صلة بنظام الحكم فى عهد عبدالناصر. لكنه فى بداية الأمر أطلق سحابة من الديمقراطية لتغطية ما وصفه الزيات بحكم المشايخ، عندما تحالف مع جماعات من الشيوعيين، واختار منهم وزراء وأعضاء فى اللجنة المركزية.

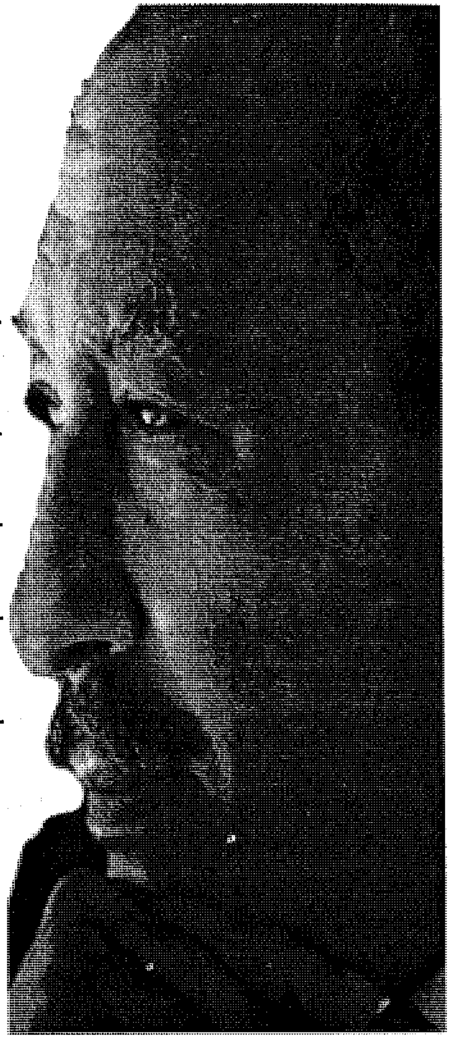
واستدعانى وزير الإعلام الجديد الدكتور عبدالقادر حاتم. وقال لى بلهجة رقيقة: إنه يأسف للظروف السياسية التى تقتضى أن أترك رئاسة مجلس إدارة «الجمهورية» ورئاسة تحريرها، وجاء الصديق مصطفى بهجت بدوى يزورنى فى نفس اليوم فى بيتى، وقال: إن كل شىء سيكون على مايرام وإنى أستطيع أن أكتب. وأرسلت مقالا إلى الصحيفة التى كنت رئيسا لتحريرها منذ أيام. وبعد يوم، جاءنى فى الليل بعض العمال ومعهم بروفة المقال. ومازلت أحتفظ بها. وقالوا لى:

— عرفنا أنهم أخبروك أن العمال رفضوا جمع المقال، وهذا كذب. هاهو ذا المقال تم جمعه وتصحيحه. لكنهم يمنعون النشر ولايريدون الاعتراف بذلك.

ابتسمت . كنت أعلم أن هذه هى الرقابة على طريقة السادات.

١٣

ضحايا الإعلام فى عهد السادات



«« استطـاع السـادات أن يشيـع منـاخ الحريـة بإعـلام مكثف، ومن خلال سينـاريو بـه مشاهـد مثيرة، كمشهد حرق شرائط التسجيل التى تحتفظ بها أجهزة الأمن فى عمليات تصنت غير مشروع .»»

ومشهـد ضرب جـدار بسجن طـرة إعــلاننـا لتحطيـم أســوار المعتقــلات وهــدم السجــون، وجميع المصريين «أولادى» لهم كل الحريـة بلا قيـد أو شرط والصحافـة تكتب ما تشــاء، يعود إليهـا مصطفى أمين الذى دخل السجن ظلم وعلى أمين الذى كان منفيا فى الخارج، وكل الكتـاب المحرومين مـن الكتابـة فى عهـد عبدالنـاصر مدعوون للكتابة سـواء كانوا من الإخوان أو الماركسيين، ورغم ذلك كنت ممنوعا من الكتابة.

وجـاء موسـى صبرى يقـول لى: إن هناك اقتراحـا بنقلى من دار التحريـر إلى روزاليوسف، ونقل كـامل زهيرى من روزاليوسف إلى دار التحـرير. قلت لـه ضــاحكا: هـذا أشبـه بعملية تبـادل أسرى! وصحبنى مـوسـى إلى سيـد مـرعى فى الاتحاد الاشتراكـى لإعـداد القرار بالنقل، وكـان عبدالرحمن الشرقاوى قـد تولى رئاسة مجلس إدارة روزاليوسف ويرأس تحريرهـا وهو مثل موسى صديق حميم وقديم، ويذكر وقفتى معه عندمـا صدرت الأوامر بمنعه من الكتابة ورفضت الـرقابـة طبع ونشر روايتـه الفلاح ومسرحيتيـه الحسين ثائرا والحسين شهيدا. فقـد تحديت المنع والرقابـة ونشرت الرواية والمسرحيتين فى «الجمهـوريـة»، وطلبت منــه أن يكتب يــوميــات

أسبوعية، وكان يريد أن يرد «الجميل» وأن يقف إلى جانبى كما وقفت إلى جانبه، ولكن ثبت أن ما يستطيع كاتب أن يفعله على مسئوليته، فى عهد عبدالناصر لا يستطيع أن يفعله أحد على مسئوليته فى عهد السادات.

اتصل بى عبدالرحمن الشرقاوى يرجونى ان نلتقى فى فندق «شبرد»، وقال لى ونحن نحتسى القهوة انه يرى ألا أذهب إلى روزاليوسف لفترة قد تطول، ولكنه يحتاج إلى بعض الوقت لإزالة عقبات تحول دون السماح لى بدخول المبنى أو تحول ــ طبعا ــ دون الكتابة. كان السادات يريد تغيير الصورة فى الإعلام، وفى جميع مجالات الحياة فى مصر. كل ما له صلة بعهد عبدالناصر إن كان خيرا أو شرا لابد من «تغييره»، وكانت هذه هى فرصتى الحقيقية لأتفرغ لكتابة رواية «زينب والعرش» ومن بعدها «حكاية تو»، وفى نفس الوقت عدت إلى مقاهى الشطرنج وتعرفت بأبطال اللعبة من الشبان، وبين كتابة الرواية ولعب الشطرنج قضيت أياما خصبة من أفضل أيامى.

وكنت أتابع من بعيد مايجرى فى عالم الصحافة والإعلام من خلال صديقى جمال الغطيقى، وهى صداقة تعود إلى سنوات المراهقة، وكان يذاكر معى ليكون الأول وأقنع بأن أكون الأخير، إذ كان يحرص على أن يناقش معى محاضرات الأساتذة فى كلية الحقوق ويعجب لعدم تركيزى فى دراسة القانون واهتمامى بالأدب، وكان جمال يريد أن يكون وزيرا ويرى أنه أحق من غيره بالوزارة لأنه متفوق فى دراسة القانون، ولأنه يؤمن انه أفضل من غيره من الذين تولوا الوزارة وكنت أتابع خلال تعليقاته وملاحظاته ما يجرى فى كواليس مسرح السلطة، وعلاقاته مع المشتغلين بالسياسة، وكان يتكلم عن اقتناع عن قدرته على صياغة

قوانين تحترم مبادىء الحرية والديمقراطية، وفى نفس الوقت تحقق للحاكم ــ السادات ــ القدرة على أن يكون الأمن والسلام الاجتماعى تحت السيطرة، واستطاع أن يقنع السادات الذى كلفه بصياغة القوانين التى تنظم الاعتقال بما يعطى مظهرا ديمقراطيا لا يتنافى مع الدعوة للحرية والخلاص من عهد المعتقلات والسجون والمصادرات.

وكانت الفرصة بعد حرب أكتوبر قد سنحت لعبدالرحمن الشرقاوى أن يطلب الاستعانة بى فى روزاليوسف وكان يريد أول الأمر أن يستعين بصلاح حافظ لولا اعتراضات ثارت بزعم انه شيوعى، وحدثنى عبدالرحمن بعد أن طلب منى موسى صبرى أن ألتقى به وأساعده، وقلت لعبدالرحمن إنى على استعداد لأن أقبل رئاسة تحرير روزاليوسف بشرط ألا أكتب فى السياسة لأنى لاأستطيع أن أدافع عن مظاهر لا علاقة لها ببواطن الأمور، وقبل عبدالرحمن وقال: إن الأمور سوف تتحسن، وقد كسب السادات حرب أكتوبر، وسوف اقتنع بأن كل شىء يتجه فى الطريق الصحيح. حرية التعبير وحرية الرأى، وكنت لاأشك فى صدق مشاعر عبدالرحمن، فهو لا يساوم فى كل مايتعلق بحرية الانسان ويثور لأية إهانة تلحق بنفس بشرية، وهو الذى صك فى حياتنا الثقافية تعبير «شرف الكلمة».

وصدر قرار تعيينى رئيس تحرير روزاليوسف فى ديسمبر ولكنى أجلت وضع اسمى على المجلة، وقررت أن أعمل مع صلاح حافظ وفتحى خليل لتطوير المجلة. وبعد خمسة أشهر قال لى عبدالرحمن: إن السادات وافق على أن يشترك صلاح حافظ معى فى رئاسة التحرير، وقال: ان مشكلة الافتتاحية السياسية والمقال السياسى قد وصلت إلى حل سعيد لأن قلم صلاح حافظ سوف

يصول ويجول برشاقته وبراعتـه وصرامته، ودخلنا عهدا بدا وكأن أفكار جمال العطيفى عن الحريـة أو «الليبرالية».. فى عهـد السادات على قدر كبير مـن الصحة. حتى وجـد جمال نفسه خـارج الوزارة والسادات يقول لـه: «انت خدعتنى» لأنه ـ السـادات ـ اكتشف أن القـوانين التى صاغهـا جمال تقيد السلطـة بفترات محددة لا يجوز أن يستمر الاعتقال بعدها، وتضع شروطـا للرجوع إلى القضاء وهو يريد اعتقـالا غير محدد المدة، ولايريد أن يترك الأمر فى يـد القضاء. يـريد قـوانين أخـرى غير تلك التى خدعـه بها جمال العطيفى، ولم يندم جمال على تـرك الوزارة التى كـان يسعى إليهـا بكل طاقـاته، لأنه لم يفكر قط فى أن يتخلى عن المبادئ القانونية الصحيحة، فهو قبل كل شىء الحريص على النجـاح بامتيـاز فى امتحـان القانـون، حتى لو سقط فى امتحان السياسة.

وجـاء امتحـان روزاليـوسف أمـام السـادات مع القـوانين الاقتصـادية فى ينـاير ١٩٧٧ والانتفـاضـة الشعبية التى وصفهـا السادات بأنها انتفـاضة الحرامية، وكـانت روزاليوسف قـد أعدت تغطية كـاملة لـلأحداث، أشرف على كتـابتها صلاح حـافظ، وكنت معـه فى مكتب عبدالـرحمن الشرقـاوى عندمـا دق جرس التليفـون فـرفع السماعـة وتكلم بلهجـة فيهـا اهتمام. فلما وضع السماعـة التفت إلينا. صلاح وأنا وقال:

ـــ هذا نائب الـرئيس «حسنى مبارك» يقول: إن الرئيـس يريد عدم إثارة موضوع الانتفاضة.

قال صلاح :

ـــ كتبنا أن الحكومة أشعلت حريق الأسعار فأطفأه السادات.

وفكرنا لحظة .. واستقر رأينا على أن ما كتبته روزاليوسف ليس فيه ما يثير أو يدعو إلى فتنة.

لكن السـادات غضب، ولم يقبل مـا كتبنـاه ومـا تـرجمنـاه عن

مراسلى صحف أجنبية تابعوا الأحداث، وطلب عبدالرحمن الشرقاوى الذى ذهب للقائه فى القناطر.

يقول عبدالرحمن: إن السادات استقبله جالسا تحت شجرة وفى يده عصا، وقال له السادات:

— الشيوعيون ضحكوا عليك.

وطلب منه السادات أن يختار منصبا آخر ، فاختار المجلس الأعلى للفنون والآداب وتقرر عزلنا «صلاح وأنا» من رئاسة تحرير روزاليوسف، وجاء مرسى الشافعى رئيسا للتحرير، وبعد أسابيع أعلن مرسى فى اجتماع عام بالمجلة أن الرئيس السادات مرتاح إلى موقف روزاليوسف، ويقول إنه لم يعد يقرأها!فكان هذا أغرب ماسمعته فى تقييم صحيفة بأنها أصبحت جيدة لأنها لاتستحق القراءة.

كان السادات يطبق بطريقته الخاصة، نفس القاعدة التى بدأت بها الثورة وهى أن الأسبقية لاستراتيجية الأمن، ومن أجل الأمن يجوز إغلاق الصحف أو خنق أصواتها ويجوز تقييد حرية الرأى، كل الوسائل — مشروعة أو غير مشروعة — تجوز من أجل أمن النظام.

وجاء فى آخر عهد السادات منصور حسن وزيرا للإعلام، وعندما قابلته شعرت باحترام كبير نحوه، وحدث أن زار روزاليوسف لأمر ما، فدارت مناقشة حول الرقابة وحرية الرأى.. وذكرته بالندوات التى كان يجريها جمال العطيفى فى التليفزيون ولماذا لا تتكرر.

فقال بصراحة:

— لن أتورط فى هذا الكمين.

وقال : إن اليساريين كانوا يبتلعون أصحاب الرأى الآخر فى

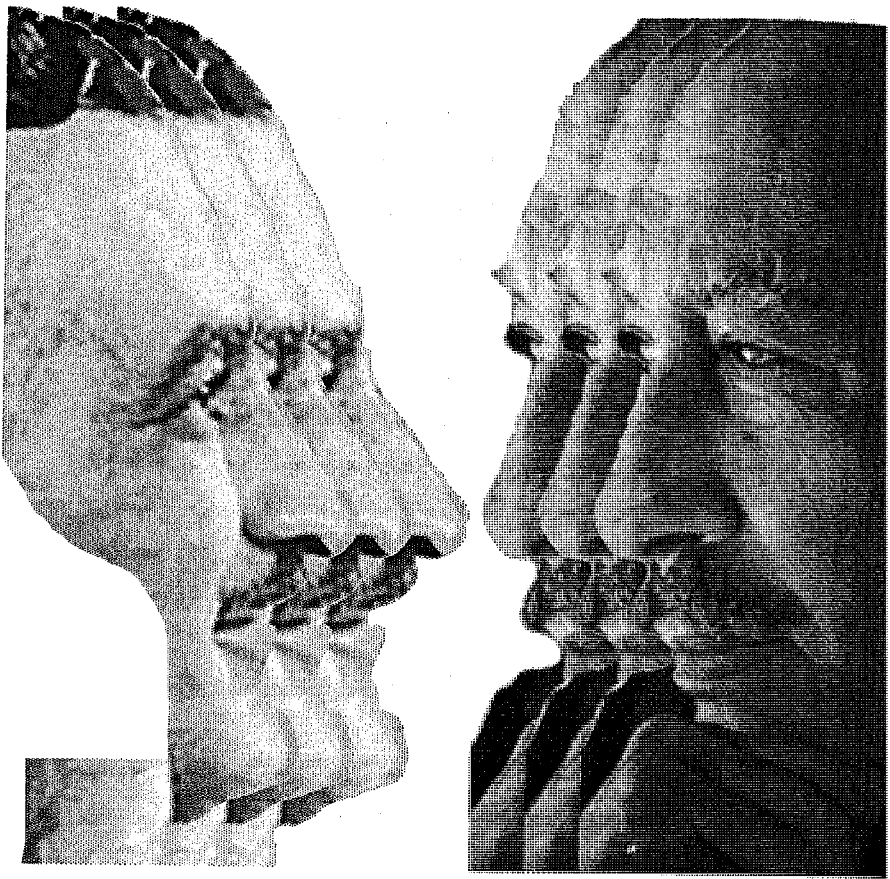
المناقشة، وعندما يجد أن الحوار متكـافىء ووجهات النظر معروضة بندية سوف يختلف الأمر ويقبل إذاعة مثل هذه الندوات.

لكن منصور حسن واجه أزمة حادة عندما قرر السادات إخراج عشرات الصحفيين من أعمالهم الصحفيـــة وشرع فى اعتقـــال من يشـاء من جميع الاتجاهـات يمينـا أو يسـارا، وذهب إلى منصـور حسن من يطلب استثنـاء بعض الصحفيين من قـرارات العـزل أو الإبعاد. فقال:

لا أطلب الاستثنـاء .. لأن هـذا الطلب يعنى انى مـوافق على عزل الآخرين.

وتـرك منصـور حسن منصبـه معلنـا لمن يـريـد أن يفهم ان استراتيجية الأمن ــ فوق حـرية الـرأى واحترام الرأى الآخـر ـ لم تعد قـادرة على أداء وظيفتها، لم تعد قـادرة على تحقيق الأمن وبعد شهر كان حادث المنصة واغتيال السادات.

١٣



أسئلة الثلاثين عاما !

"" تتلخص تجربتى ككاتب فى عهدى عبدالناصر والسادات فى أن السلطة السياسية كانت تتعامل مع حرية التعبير باستراتيجية محددة، وهى أن الأمن أهم من الثقافة، وحماية النظام تبرر تقييد الحوار.. وإن اختلف أسلوب التعامل من عهد عبدالناصر إلى عهد السادات. ""

ولا أريد أن أقف عند المقارنة بين العهدين، ذلك لأنى أفكر فى الحاضر، وما أكتبه عن أيام عبدالناصر وأيام السادات، مقصود به أيام مبارك، ولأقول بوضوح: إن استراتيجية الأمن لاتحقق أمنا إذا ما كانت قيدا على حرية الرأى، وإذا تدخلت فى حوار المثقفين لتفرض عليه مسارا معينا يرضى عنه النظام أو يرتاح له الحاكم، وأسبقية الأمن على حرية الفكر لم تحقق الأمن للنظام الناصرى فى يونيو ١٩٦٧.. ولم تحقق الأمن للحاكم فى ٦ أكتوبر ١٩٨١، ولقد انشغلنا بالمقارنة التاريخية بين العهدين ـ عبدالناصر والسادات ـ وهى مقارنة عقيم إذا لم تؤد إلى فهم الحاضر.

وأذكر خطابا للكاتب الانجليزى «ديزموند ستيوارت» كان قد أرسله إلى ناشر أمريكى يتحدث فيه عن مشروع دراسة يريد أن يكتبها عن عهد عبدالناصر مقارنا بعهد السادات، ولقد ترك «ديزموند» نسخة من هذا الخطاب «التقرير» مع أوراق أخرى، وبعد وفاته جاء فى وصيته انه يترك لى أوراقه وما أريد أن احتفظ به من كتبه فى مسكنه بشارع يوسف الجندى بباب اللوق، ولكنى

لم أذهب لأحضر مع مندوب السفارة الانجليزية تنفيذ الوصية في شقته، واكتفيت بما لديّ من أوراق، وأجد أن هذا الخطاب الذى أرسله «ديزموند» إلى الناشر الأمريكى عام ١٩٧٦ فيه رؤية - أجنبية - جديرة بأن نتأملها.

عزيزى كارل ..

مصر تقوم بتشريح جثة عبدالناصر. قرأت فى مجلة «كل شىء» الأسبوعية اللبنانية مقالا بعنوان: «عبدالناصر، قاض أم متهم»، وفى المقال ملاحظتين تثيران الاهتمام، فلقد ظهر حتى الآن فى مصر أكثر من سبعة وثلاثين كتابا عن عبدالناصر، تهاجمه أو تدافع عنه، وذلك خلال العام الماضى فقط، وهذا يدل على أن هناك أخيرا نوعا من حرية الصحافة، فصحيفة «الأخبار»، ولها ميول غربية وهى أقرب إلى أسلوب «الديلى اكسبريس»، استطاعت أن تتفوق على صحيفة «الأهرام» التى أصبحت مملة منذ أن تركها هيكل، بينما يتصاعد توزيع «روزاليوسف» التى تمثل الفكر اليسارى وتضم أفضل الكتاب والرسامين - فى رأيى - فارتفع التوزيع من خمسة آلاف إلى مائة وعشرين ألفا فى الأسبوع.

وعملية تشريح عبدالناصر أثارت اهتمامى، لأن هناك آراء متضاربة حول حكم عبدالناصر الذى دام ثمانية عشر عاما، وهذا التضارب يدل على أن هناك أعراضا للتغيير تستحق أن أكتب عنها مقالى السنوى، وربما بدأت مقالى بأن أسجل موقفى الشخصى، لقد جئت إلى مصر عام ١٩٥٧ لأقابل عبدالناصر وناقشت معه فى جلسة دامت أربع ساعات أفكاره الرئيسية.

ومنذ ذلك الوقت ارتبطت حياتى بمصر التى أممت قناة السويس، وبعد أن قضيت قبل ذلك ثمانية أعوام فى العراق التى هى شبه إقطاع، وقمت بتأليف بعض الكتب، وترجمت روايتين

مصريتين - «الأرض» للشرقاوى و«الرجل الذى فقد ظله» لفتحى غانم — وعاصرت فى مصر أيام عبدالناصر الوحدة والانفصال مع سوريا وحرب اليمن. وأيقنت أن أحسن النوايا التى يضمرها الحكم العسكرى تنتهى إلى عدم الكفاءة والقهر.

ولقد عبرت عن مشاعر الإحباط فى كتابى «معبد جانوس» الذى صدر فى حياة عبدالناصر، ولكن إعجابى كان واضحا ومستمرا بالانجازات الإيجابية التى حققها عبدالناصر مثل السد العالى.. والحد من سطوة الإقطاع والتصنيع والقوانين الاشتراكية، وإحياء الشعور بالكرامة والهدف الوطنى لمصر.. وسوف يكون الموضوع الرئيسى لمقالى تحليل أو وصف مايجرى فى مصر معتمدا على مقتطفات من هذه المجموعة من العناوين التى تناولت عبدالناصر.. ابتداء بتلك التى تندفع فى أحضان الغرب إلى المعتدلين سواء الذين يؤيدون أو يعارضون عبدالناصر، إلى الذين أقاموا معبدا لعبادة عبدالناصر.

ولعل أحد الكتب التى أثارت الاهتمام هو كتاب «أسرار خلف الأسوار» للكاتب جلال الدين الحمامصى، ولقد باع ثمانين ألف نسخة، وأثار جدلا وخصاما حول مازعمه أن عبدالناصر هرب خمسة عشر مليون دولار إلى الخارج، ويذكر نقطة هامة وهى أن الخطأ الرئيسى لعبدالناصر انه حرم الشباب المصرى من ذاكرته التاريخية، وكأن تاريخ مصر بدأ فى يوليو ١٩٥٢، والحمامصى الآن وأثناء كتابة هذا الخطاب وسط عاصفة عاتية. أما «روزاليوسف» فهى مع عبدالناصر، وقد نشرت حلقات عن عبدالناصر تشعر بصدق وشفافية كاتبها. واسمه محمود الجيار، أحد رجال عبدالناصر وإن كانت لا تخلو تعليقاته من السذاجة.

وأريد أن أختتم مقالى بأن أوازن بين المناخ الحالى الذى يسمح

بهذا الجدل والفساد الذى يستشرى حاليا والتضخم، وفقدان المصريين للهدف الذى كان يدعوهم إليه عبدالناصر، إن كل طائرة وكل سفينة تغادر مصر فى هذه الأيام تحمل معها مهاجرين، إنهم يصوتون بأقدامهم التى تغادر مصر.. مارأيك..

المخلص ديزموند

لقد سمحت لنفسى بنشر هذا الخطاب الخاص، لأنى أريد أن أدعو القارىء إلى أن يخرج من دوامة المقارنة ليوظفها فيما هو مفيد. أى فى استخلاص الدروس التى تفيد فى مواجهتنا لمشاكل الحاضر والمستقبل، فالقضية ليست فى مدح عبدالناصر وتأييده إلى درجة العبادة والتأليه.. أو الهجوم عليه للقضاء على كل ما يذكرنا به.. أهم من ذلك هو النظرة الناقدة الفاحصة التى تعترف بزعامة الرجل وإنجازاته، وتبحث فى نفس الوقت عن أسباب الخطأ، تناقشها بموضوعية من أجل الحاضر وليس من أجل إصدار أحكام على الماضى، وهذا أيضا لابد أن ينطبق على عهد السادات، إذا أردنا أن نستفيد فى فهم حاضرنا.

ولنتخلص من الحيرة التى تواجه شبابنا وهو يفكر فى المستقبل، وبهذه المناسبة، أريد أن أشير إلى خطاب من نوع آخر، كتبه وأرسله إلى صحفى شاب كان يبدأ حياته الصحفية بدأب ونجاح، ولكنه كان ـ منذ ثلاثين عاما ـ فى حيرة تامة، يحمل معه أسئلة تبحث عن إجابات.

ولقد وصل هذا الصحفى فيما بعد إلى رئاسة التحرير فى عهد مبارك، ولنقرأ خطابه، لنرى العناصر التى تتكون منها القيادات الصحفية فى ظل استراتيجية «الأمن فوق الثقافة وحرية التعبير».

عزيزى الأستاذ فتحى..

لا أدرى، هل من الجائز أن أكتب لك خطابا، ينشر ويقرأه

الناس، وقد قلت لنفسى، ولم لا! إننى لا أكتب له خطابا خاصا أطلب فيه لنفسى علاوة، ولا أشرح أزمة عاطفية أعيش فيها، إننى أسجل فى كلمات قليلة حيرة أحسها وتعذبنى.. فهل تسمح لى «بالفضفضة»؟!

ياعزيزى الأستاذ فتحى.. أحيانا أشعر أن ما نكتبه مجرد ملء صفحات لنقبض مرتباتنا فى نهاية الشهر، إن شعورا يسيطر علىّ، أننى وزملائى «عبيد» للمطبعة.. يثور سؤال يعذبنى: هل نكتب مانريده، نحن، أم نكتب مايريده الناس.. هل الصحافة عنصر إعلامى يؤثر حقيقة فى الناس؟ هل له فى بلدنا «سلطان» كبير؟ هل يهتز المسئول عندما نكتب شيئا ندينه به.. و.. هل تعتبر الدولة أن ما نقدمه من وثائق ومعلومات.. له وزنه؟ هل ينظر إلينا كبضاعة أم كرسالة؟!.. كتبنا حتى تعبنا، حتى أرهقنا.. ثم مللنا.

والسؤال: هل من الطبيعى أن «نكبت» هذه المشاعر ونستمر.. أم نتوقف فورا.. وهل التوقف يعتبر جريمة أم تكاسلا أم إهمالا..

وإذا كنت جريئا فيما أكتب، فما حدود هذه الجرأة؟ ما حدودها فى التحقيق أو التعليق.. أو حتى الخبر الصغير؟ هل الجرأة أن أذكر كل ماعندى لأكون صادقا مع نفسى ومع القراء.. حتى لو كان ماأذكره هذا يمس «الأشخاص» أم أن للأشخص.. شخصيات اعتبارية. بعضها بأسلوب مؤسسة السينما ـ حرف «أ» ـ وبعضها حرف «ب».. وأخرى حرف «ى».. هل أكون كذابا مع نفسى وصادقا مع الناس..هل ألف وأدور، هل أتذاكى.. هل أستعبط.. هل أسكت.. هل أغامر. هل.. هل.. هل؟!

أرجوك لا تحذف كلمة واحدة مما كتبت، إنس أنك رئيس تحرير.. اعتبر نفسك زميلا فى الحيرة كصاحب تجربة أكبر، وربما

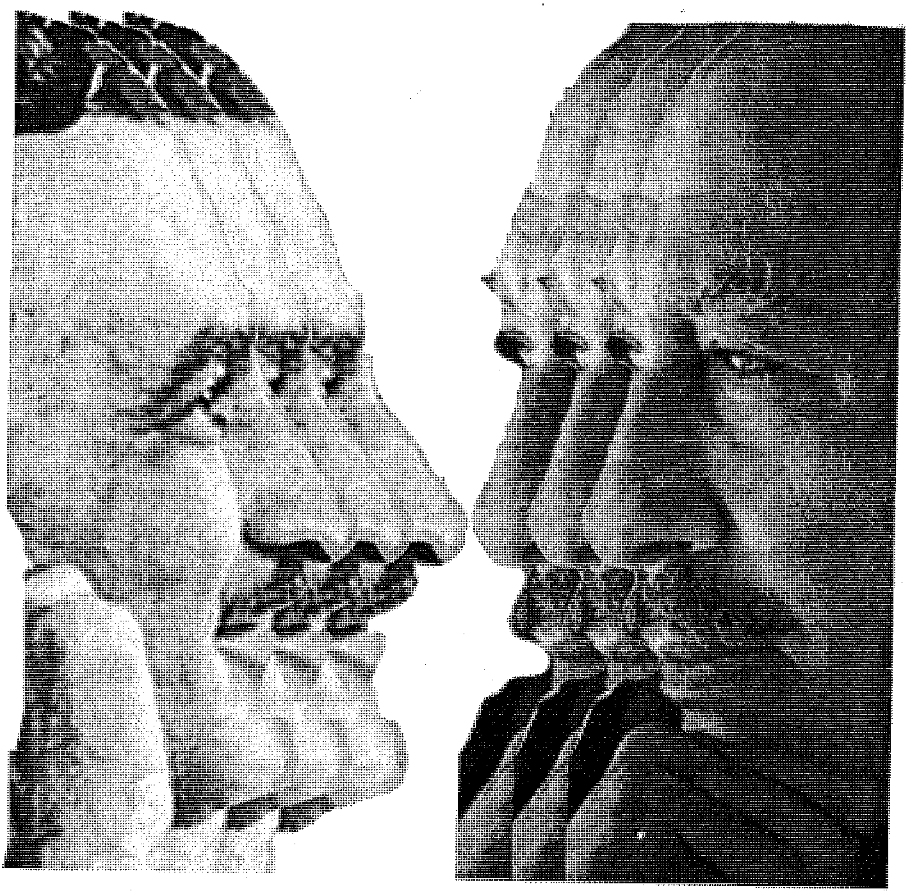
هـذه ليست حيرتى وحدى، ربما كـانت حيرة زمـلاء آخرين، كلنـا نمسك بالقلم، هذه صناعتنا، نحن نحبها ونريد أن نصنع شيئا..

المخلص مفيد فوزى

وقـد نشرت الخطاب كـامـلا فى «صباح الخير» الصـادرة فى ٢١ مـايـو ١٩٦٤.. وظلت هـذه الأسئلة وغيرهـا تتردد عنـد المشتغلين بالكتابة فى كل العهود، أحيـانا تبلغ الحيرة ذروتها، وأحيانا يبدو فى الأفق نـور حريـة مقبلـة.. يستقبلها الكتـاب والصحفيون بتفـاؤل مشوب بـالحذر، كما يقولون فى لغة الـدبلوماسيـة.. ذلك لأن المناخ السائد هو أن الأهم هو الأمن.. أحيانـا يكون الأمن القومى، وأحيانا أمن نظـام، وأحيانـا أمن حـاكم.. وأحيـانا أمـن أجهزة أو تيـارات تتصـارع داخل السلطة، خـاصة فى مرحلة انتقـال السلطة أو توقع انتقالها.

وفى ظل استراتيجيـة الأمن بهذا المفهـوم الشـامل، لا تتـوافـر الفرصـة لنضج الأفكار، وممـارسة الثقـافة بمعنـاها الحقيقى، أى التعـرف الموضـوعى والنقدى على المشـاكل والأزمـات، واكتشـاف وسـائل العـلاج وأسـاليب التحدى النـاجح لـلأزمـات، لأن عمليـة الاكتشاف تحتاج إلى تفكير وإمعان فى الخيال، وتضارب فى التقدير، ومقارنـة بين موقف وآخـر، وقبول الـوقوع فى الخطأ وفتـح أبواب الجدل والنقاش حتى يتبين الصواب من الخطأ وتنسجم التصرفات وأنواع السلوك بما استقر فى الضمائر واقتنعت بـه العقول، للأسف لم تتح للمثقفين من أهل الكتابـة الفرصـة التى يستحقونها للتعبير عن أنفسهم أو اكتشـاف ذواتهم، أو مجرد التسجيل النقـدى لما يجرى فى مجتمعهم. ولقد كانت تجربتى فى منتصف الثمانينات مع الرقابة لها دلالتها البالغة الخطورة.

١٤



استراتيجية أمن أشهرت إفلاسها

●● تجربتى مع رقابة التليفزيون لرواية الأفيال، هى التى كشفت عن إفلاس استراتيجية الأمن فى مواجهة حرية التعبير والثقافة..بل ـ وهذا هو الأخطر ـ فى مواجهة متطلبات الأمن ذاتها! ●●

ولقد كنت متحمسا لتقديم الرواية إلى التليفزيون المصرى.

وكنت سعيدا باتصال الصديق ممدوح الليثى بى، وحرصه على أن نلتقى فى الإسكندرية ليتفق معى على إعداد الأفيال كمسلسل للتليفزيون المصرى.

وزاد من حماسى أن الفنانة سهير رمزى كانت تريد إنتاج الرواية بعد نجاحها فى «زينب والعرش». فأعلنت فى الصحف أنها سوف تقدم الأفيال، لكن ممدوح الليثى اتفق معى على أن موضوع الرواية يثير قضايا هامةجديرة بأن يتولاها التليفزيون المصرى، فقلت له: إن هذا يسعدنى، لأنى فى الحقيقة أرى أن تناول التليفزيون المصرى لرواية تناقش الإرهاب والتطرف والانهيارات الاجتماعية فى البيت والمدرسة وتأثيرها على حالة الشباب وما ينتابه من عنف، يعطى للقضية ماتستحقه من اهتمام، كما أنه يحمل معنى أصيلا، وهو أن نقد المجتمع، ونقد السلطة التى ساهمت بأخطائها فى تصاعد العنف والتطرف، إنما هو نقد صادر من تليفزيون مصر، ولا يحمل أى معنى للتشنيع أو نشر ثيابنا القذرة فى الخارج، بل نحن الذين نواجه أنفسنا بأنفسنا، ونبحث فى مشاكلنا ونتصدى لها بإرادتنا.

وكان التليفزيون المصرى فى ذلك الوقت قد واجه أزمة عنيفة أثناء عرض مسلسل لمصطفى أمين اسمه «صاحب الجلالة الحب»، فقد سمعنا عن أصوات احتجاج تصاعدت لأن مشاهد المسلسل لم تقدم القوات المسلحة فى الصورة اللائقة بها قبل وبعد ثورة يوليو، وتدخل رئيس الوزراء الدكتور فؤاد محى الدين ليعيد رقابة المسلسل.

وحدث أن كان على موعد للقيام بزيارة رسمية فى الخارج، فطلب إحضار حلقات المسلسل التى لم تذع وراجعها بسرعة ثم طلب اختصارها فى ثلاث حلقات ليطمئن إلى أن أصوات الاحتجاج لن ترتفع أثناء سفره، وكان ممدوح الليثى يقول لى: سوف نعوض ماحدث لصاحبة الجلالة فى مسلسل الأفيال، فاستنتجت من كلامه، ومن رغبته فى إعداد الأفيال، أن هناك سياسة جديدة للإعلام، تفتح الأبواب للتعبير ولمعالجة القضايا الهامة التى تناقش مسئولية السلطة كما تناقش مسئولية الأفراد فى المجتمع دون أن تتعرض لتدخل من الرقابة.

وكتبت سيناريو الأفيال ورحب به ممدوح الليثى وتحدث معى أكثر من مخرج كبير عن اتصالات تمت معه ليتولى الإخراج، ثم استقر الرأى على أن يتولى الإخراج إبراهيم الصحن الذى اتصل بى ليخبرنى أن الرقابة بعد أن أجازت الرواية، وتم طبع السيناريو، عادت واعترضت على الرواية.

وقرأت تقرير الرقيب «على الزرقانى» فوجدت عجبا، إنه يرفض أن تتناول الأفيال الجماعات المتطرفة، إنه يرفض أن تتناول الأفيال التطرف الدينى، لماذا لايكون البطل مدمن هيروين وليس متطرفا أو إرهابيا ، تقرير يجمع بين الجهل بالأدب، والتملق الزائف والمبالغ فيه لتعليمات الرؤساء «المجهولين» الذين طلبوا الاعتراض على

الرواية التى طلبها التليفزيون وسعى إلى تقديمها وعرضها.

وذات يوم اتصل بى ممدوح الليثى، وطلب منى أن أسرع إليه فى مكتبه، لماذا يا ممدوح؟ قال ضاحكا: لأن ضباط الشرطة يحاصرون مكتبى وسوف يقبضون على بسبب روايتك، وذهبت إلى التليفزيون، وهناك قابلت ضابطين كبيرين، بلغهما أن التليفزيون يعد رواية الأفيال، ثم بلغهما أن الرقابة تعترض، فجاءا إلى التليفزيون ليعلنا أن الأمن مهتم بعرض المسلسل دون تدخل من الرقابة، ثم كان لقاء مع اللواء فؤاد علام وكان المسئول عن الجماعات المتطرفة فى ذلك الوقت، وقال لى: إنه حريص على عرض المسلسل، ليرى الشعب كيف يتحول الشباب إلى التطرف والعنف، وقال: إن مثل هذا المسلسل يوفر على أجهزة الأمن العمل فى الشارع المصرى لستة شهور كاملة، لأن الوعى مطلوب وأصبح ملحا وضروريا قبل أن يستفحل الأمر!

كانت هذه هى المرة الأولى التى أواجه فيها موقفا، يعلن فيه «الأمن» أنه يحتاج إلى نشر «الوعى» لأنه الوسيلة لتحقيق الأمن، استمعت إلى كلام اللواء فؤاد علام فى مكتبه بوزارة الداخلية، وشريط من الذكريات يجرى محموما فى رأسى، عن الأيام التى كنت أسمع فيها أن الأمن يبدأ بالقوات المسلحة، ثم الشرطة، ثم الإعلام، أما الثقافة فيأتى أمرها فى ذيل قائمة طويلة من قضايا اقتصادية واجتماعية و.. و..

وعندما قال لى ممدوح الليثى ومعه إبراهيم الصحن :إن السيناريو سوف يتم تصويره بلا تعديل أو حذف، شعرت أن تحولا حقيقيا يحدث فى مصر، إننا نريد أن نصنع أمننا بالوعى والثقافة، قبل أن نصنعه بالبندقية والمدفع، والثقافة هى التى تهيىء لنا العقول القادرة على حفظ الأمن سواء أكان أمن الخارج

أم أمن الداخل، فلم تعد القوة هى التى تفـرض كلمتها على الثقافة، بل أصبحت رسالة الثقافة هى الضوء أوالنور الذى يكشف الطريق للجميع، لأنه ينير عقول الجميع!

وفجأة أنطفأ النور، فقد صدرت الأوامـر بحذف ما تم تصويره، ولم يكتف الرقيب بـالحذف ، بل أمر بحـرق ماتم تصـويره، لماذا؟ ماالسبب؟.. لأن دولا عربيـة اشترت المسلسل واعترضت على مافيه من قضايا تطرف وإرهـاب، اشترت المسلسل وقررت حذف وحرق ساعـات كاملة من التصـوير، والتليفـزيون المصرى يبيع ويخضع لرغبات المشترين، دنانيرهم أهم مـن طلبات أمن الداخلية، وسمعت كلامـا واضحا يبرر الحذف: إننا لانستطيع أن نأخذ بكـلام يصدر من الداخلية، لأنهم ـ بما فيهم وزير الـداخلية نفسه ـ لايستمرون فى مناصبهم.. والزبائن الذين اشتروا أهم وأبقى!.

والمدهش حقـا أن وزير الـداخليـة فى ذلك الوقت سقط بسرعـة، وفـؤاد عـلام نفسـه انتقل إلى مكـــان آخـر، وكتبت عـدة مقـالات وأحاديـث صحفية عن هـذا الأمر، ولا أحـد يهتم ولا أحد يـريد أن يهتم أو على الأصح لاأحـــد يجرؤ على أن يهتم، بينما استراتيجيـة الأمن تنهار وتشهـر إفلاسها أمـام استراتيجية الدنانير والـريالات والدراهم، وتيار بشرى مندفع إلى منـابع الثروة لايريد سوى المال، يبيع مـذهبه الدينى، يتخلى عـن تقاليد مصر فى الأخـذ بإجماع أهل السنـة ورفض التحيـز لـلآراء والفتـاوى الخلافيـة التى لم يجمع عليها أهل السنة، ويبيع تاريخ مصر.

كما حـدث أن طـالب أستـاذ جـامعى مصرى بشطـب تـاريخ الحضارة الفرعونية من برنامج التدريس فى جامعة بالسعودية ظنا منـه أنه سـوف يكسب حظـوة ومالا، لـولا أن شاءت الظـروف أن أساتذة سعوديين درسوا فى جامعات أمـريكا رفضوا دعوته ونبهوه

إلى أن التاريخ علم ودراسة الحضارات علم لاغنى عنه.. فذهب الأستاذ المصرى يبحث - باسم حماية الدين من تاريخ الفراعنة - عن الذى يؤيده ويمنحه الحظوة والمال.

وخلال الثمانينات، وبينما كانت سياسة مصر تركز على مواجهة الأزمة الاقتصادية من ناحية، وتعمل على إعادة العلاقات المقطوعة مع الدول العربية من ناحية أخرى، كانت استراتيجية الأمن تفقد وظيفتها، والعقول المصرية المشغولة بالاقتصاد تفتقد ثقافتها، والاندفاع إلى الدنانير له رد فعل مضاد يهاجم المصرى والمصرية ويدعم نظرة الاستعلاء على العقول التى تبيع مالديها، بعد أن أصبحت فارغة تعيش تحت رقابة حماية الأمن وتوجيهاته وتعليماته ورقابته.

وكان لابد أن تحدث اغتيالات وانفجارات، لأن فراغ العقول، يجلب على الفور ريحا تهب لتملأ الفراغ، تمثل قوى غاشمة أو غشيمة.. شديدة الفظاظة والتوحش، لكنها - كما يقول لنا التاريخ - تمثل طاقات جديدة كلها حيوية وعنف، تبحث عن ثقافة حقيقية، وتفاعلات تساعد على إنضاجها، فإذا لم تجدها فلابد أن تدمر ماحولها ثم تدمر نفسها.

وهكذا وجدنا أنفسنا فى وقت متأخر نبحث عن الثقافة، وحرية التعبير، وانطلاق الإبداع والفكر، وندعو إلى التنوير وإلى إعادة النظر فى الرقابة وقيودها، ولابد أن يتطور البحث إلى معركة جادة يخوضها المثقفون مع أنفسهم ومع مؤسسات الدولة لإعادة النظر فى استراتيجية الأمن التى أفلست منذ سنوات وماتت دون أن يعلن أحد وفاتها، بينما الأحداث تؤكد كل يوم أن نور العقل هو الوحيد القادر على فتح طريق السلامة أمامنا، وبغير العقل نمضى فى طريق الندامة أو الطريق الذى نذهب فيه فتكون نهايتنا ولا نعود.

إن أجهزة الأمن لاتحمى الثقافة ولا تصنعها، والأمن القادر على تأدية وظائفه، يحتاج إلى الثقافة ترشده وتنير له الطريق، أما إذا خضعت الثقافة للأمن فهى تضيع وتملأ فراغها بالضرورة قوى جديدة، تدمر إذا لم تتعلم، وهى لن تتعلم بإستراتيجية تجعل الثقافة خاضعة للأمن، ولن تتعلم إذا لم ندرك أنها فى جوهرها نتيجة فراغ تسببنا فى حدوثه، فهو ليس من صنع الأقدار وليس حتما تاريخيا، ولن نتعلم إذا لم نتبصر بما تمثله من جديد مغمور وكامن فى أعماقها، ومهما كان الأمر فإنهم بشر ومسئولية المثقفين أن يكتشفوا أصالتهم وفطرتهم السليمة، قبل أن يكتشف رجال الأمن ترسانة السلاح والمتفجرات.

مهرجان القراءة للجميع ٩٥

القراءة للجميع

جمعية الرعاية المتكاملة

مكتبة الأسرة

الطبعة الثانية

اضخم مشروع عرفته مصر لتقديم الثقافة الحقيقية والرفيعة من خلال الكتاب لجموع المواطنين بأسعار رمزية تشترك فيه عدة جهات .. هي :

★ جمعية الرعاية المتكاملة ★ وزارة الثقافة ★ وزارة التعليم

★ وزارة الحكم المحلي ★ وزارة الاعلام المجلس الأعلى للشباب والرياضة

★ وتقوم على تنفيذ المشروع الهيئة المصرية العامة للكتاب

بناء على رغبة الجماهير وبعد النجاح الساحق لسلسله مكتبة الاسرة وبناء على توجيهات اللجنة العليا للمهرجان برئاسة السيدة سوزان مبارك تقرر طرح طبعة ثانية من جميع كتب سلسلة مكتبة الأسرة بفروعها الثلاثة هي :

اولا : تراث الإنسانية :

وتضم الكتب الاصيلة التى عاشت وبها الأجيال السابقة وشكلت مسيرة حضارة الانسانية على مر العصور بسعر ٢٥ قرشا فقط للنسخة الواحدة

ثانيا : الاعمال الإبداعية من روائع الأدب العربي :

والتى جادت بها اقلام الشوامخ من كبار أدباء مصر والعالم العربى سعر النسخة جنيه واحد لا غير .

ثالثا . الاعمال الفكرية من روائع الفكر العربي :

وهى الكتب التى تضم الفكر الخلاق الصحيح الذى واكب مسيرة مصر والوطن العربى لكبار الكتاب بسعر النسخة جنيه واحد لا غير . وتصل الكتب يوميا وتباعا من المطابع لمنافذ البيع مع جميع باعة الصحف فى فروع هيئة الكتاب بالقاهرة والمحافظات .

اولا : تراث الانسانية سعر النسخة ٢٥ قرشا

اسم الكتاب

- البحث عن اليقين
- حى بن يقظان
- السيرة النبوية
- الامتاع والمؤانسة
- الموسيقى الكبير
- ذهب مع الريح
- الصعلوكتين
- منتخب الفرات
- عجائب المخلوقات
- ضحى الاسلام
- القلق
- فتوح مصر
- طبقات الشعراء
- تاريخ الامم والملوك
- تاج العقل
- الاستيفاء
- الرسالة
- روح القوانين
- العقد الاجتماعى
- البراجماتية
- الحكايات
- نافذة على المسرح
- فن الشعر
- ما بعد الطبيعة
- نظرية تركيب الذرة
- محاورات سقراط
- مخطط تاريخ تقدم العقل البشرى
- سيرة عنترة
- عن الحرية
- الخطط التوفيقية
- سيرة الأميرة ذات الهمة
- النظرية الميكروبية للمرض
- الشيمة
- موطأ مالك
- سيرة بنى هلال
- الجامع لمفردات الادوية والاغذية
- حكايات شوقى
- ظاهريات الفكر
- فن التربية الجمالية
- كونفوشيوس
- الضفادع
- معجم الادباء
- شرح سيفويه
- الالياذة
- الهيالى
- أوديب ملكا
- القانون
- مذكرات رحلة حول العالم
- الافادة والاعتبار
- سراج الملوك

ثانيا : الاعمال الابداعية من روائع الأدب العربى سعر النسخة جنيه واحد لاغير

اسم المؤلف

- توفيق الحكيم
- يحيى حقى
- محمد عبدالحليم عبدالله
- يوسف السباعى
- احسان عبدالقدوس
- محمود تيمور
- ابراهيم المازنى
- احمد شوقى

اسم الكتاب

يوميات نائب فى الارياف
صح النوم
شجرة اللبلاب
نائب عزرائيل
حائر بين الحلال والحرام
بنت الشيطان
صندوق الدنيا
من روائع احمد شوقى

اسم المؤلف

- حافظ ابراهيم
- مصطفى لطفى المنفلوطى
- يوسف ادريس
- سعد مكاوى
- يوسف الشارونى
- محمد حسين هيكل
- من روائع الشعر
- احمد عبدالمعطى حجازى

اسم الكتاب

من روائع حافظ ابراهيم
النظرات
العيب
السائرون نياما
المنازل المسة
هكذا خلقت
اشعار مصرية
شعراء الوجدان

ثالثا : الاعمال الفكرية من روائع الفكر العربى

اسم المؤلف

- جمال حمدان
- زكى نجيب محمود
- مصطفى صادق الرافعى
- جمال بدوى
- عباس محمود العقاد
- سلامة موسى
- خالد محمد خالد
- امين الخولى

اسم الكتاب

شخصية مصر
رؤية اسلامية
اوراق الورد
مصر من نافذة التاريخ
عبقرية عمر
هؤلاء علمونى
معا على الطريق
من هدى القرآن

اسم المؤلف

- أحمد بهاء الدين
- سليمان حزين
- د . عبدالله شحاته
- بنت الشاطئ
- مرع انطون
- صلاح عبدالصبور
- طه حسين

اسم الكتاب

ايام لها تاريخ
حضارة مصر
اركان الاسلام
صورة من حياتهن
الدين والعلم والمال
حياتى فى الشعر
الوعد الحق

مكتبة الأسرة أروع ماقدم رواد الفكر والأدب البشرية

مع تحيات اللجنة العليا لمهرجان القراءة للجميع

هــذا الكتــاب

هذه المعركة حدثت فى أواخر الخمسينات وأوائل الستينات.

فمنذ قيـام الثورة فى يوليـو ١٩٥٢ ـ كما يروى فتحـى غانم فى هذا الكتـاب ـ وضع جمال عبدالنـاصر هدفا محددا.. وهو السيطـرة على عقول المصريين.. ولم يكن يستطيع تحقيق غرضه إلا بترويض المثقفين أولاً..وخاصة الصحفيين..

وقداستخـدم عبدالناصر فى هـذه المعركة الشرسـة مع المثقفين كل الأسلحة المتـاحة والمتوفرة للـدولة والثورة من أجهزة المخـابرات والمباحث والتنظيم السرى أو الطليعى.. وقـد بلغ من قـدرة التنظيم الطليعى أنـه يمكنـه إطـلاق إشاعـة فى القـاهـرة تنتشر من الإسكندرية إلى أسوان خلال ساعة واحدة!!

وقـد نفذ صبر عبـدالناصر من الصحـافـة والصحفيين الذين قـاوموا كل الأسلحـة والأجهزة بهدف تـرويضـهم والسيطرة عليهم.. فأصدر أخيرا قرارا بتأميم الصحـافة فى مايـو ١٩٦٠.. ومنذ ذلك التاريخ انتهت الملكيـة الخاصة للصحافـة وانتقلت ملكيتها إلى الشعب الذى كان يمثله فى ذلك الوقت الاتحاد القومي!!

ولم تكتفى الثـورة بـالاستيـلاء على الصحـافـة.. بل امتـدت المعـركـة إلى الأدبـاء والمفكرين.. لترويضـهم كما تم تـرويض الصحفيين.. وذلك لوضـع الصحـافة ثم الأدب تحت سيطرة الأمن.. وخيم مناخ القهر على المثقفين للاشتباه فى عدم ولائهم للثورة!!

وفتحى غانم كان شاهدا على كل وقائع معـركة الترويض.. كان رئيسا للتحرير.. وفى نفس الوقت أحد الشخصيات البارزة الذين اختيروا للانضمام للتنظيم الطليعى.

وإلى جانب أنـه صحفيا كبيرا.. فإن فتحى غـانم أديب وروائى حساس كتب عشرات الروايات التى أثارت ضجة منهـا «الأفيال» و«زينب والعرش».. وقد حصل فتحى غانم عى جائزة الدولة التقديرية هـذا العام.. وقد تأخر حصوله على هذه الجائزة ربما بسبب مواقفه الشجاعة التى جعلته شهيدا.

وهذا الكتاب الخطير يروى فيـه فتحى غانم وقائع المعركة التى حاولت فيها الدولة ترويض المثقفين وخصوصا الصحفيين.. وقد نشر فتحى غـ... الكتاب من قبل فى مجلة روزاليـوسف ولم يعترض أحد على أية واقعـة ... ـركة التى انتهت بهزيمة عام ١٩٦٧.. وهزيمة الثقافة.. وأصبحت العـ...

ـاطـة

الثمن ٤ جنيهات



طبع بمطابع دار أخبار اليوم